

جَلِيلٌ رَطَابٌ الْعَلِيمِ

بقلم

بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ

مؤسسة الرسالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حليّة طالب العلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

غاية في كلمة



للطباعة والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة للناسِ

الطبعة الاولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

وطني للتعليمية
شمارع عينات في خرد
شمارع الشكر
فانت: ٣١١-٣٩١ - ٤٧٧٢٢
بعضر: ٤١٤٦١١ - ٤١٤٦١٠
تريب: ٣٣٤٠٠
سيفت: ٣٣٤٠٠

Resalah
Publishers

Tel: 119019 - 815112

Fax: (9611) 815613

P.O.Box: 117460

Beirut - Lebanon

Email:

resalah@resalah.com

Web Location:

http://www.resalah.com

حقوق الطبع محفوظة © ٢٠٠١م. لا يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو
أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام
ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه.
ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى
دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

المقدمة

الحمدُ لله ، ونَعُدُّ :

فَأَقْبِدُ مَعَالِمَ هذه «العِلِّيَّةِ» المُبارَكَةِ عام ١٤٠٨ هـ، والمسلمون - والله الحمد - يُعَايِشُونَ يَقْظَةً عِلْمِيَّةً، تَتَهَلَّلُ لَهَا سُبْحَاتُ الوجوه، ولا تَزَالُ تُنْشِطُ - مُتَقَدِّمَةً إِلَى التَّرْقِيّ وَالنُّضُوجِ - فِي أَفئدةِ شَبَابِ الأُمَّةِ مَجْدَهَا وَدَمَهَا المُجَدِّدَ لِحَيَاتِهَا؛ إذ نَرَى الكِتَابَ الشَّبَابِيَّةَ تَتْرَى، يَتَقَلَّبُونَ فِي أَعْطَافِ العِلْمِ مُثْقَلِينَ بِحِمْلِهِ يُعَلُّونَ مِنْهُ وَيَنْهَلُونَ، فَلَدِيهِمْ مِنَ الطُّمُوحِ، وَالجَامِعِيَّةِ، وَالأَطْلَاعِ المُذْهِشِ وَالعَوُصِ عَلَى مَكْنُونَاتِ المَسَائِلِ، مَا يَفْرَحُ بِهِ المُسْلِمُونَ نَضْرًا، فَسُبْحَانَ مَنْ يُحْيِي وَيُمِيتُ قُلُوبًا.

لكن؛ لا بُدَّ لِهذه النِّوَاةِ المُبارَكَةِ مِنَ السَّقْيِ وَالتَّعْهِدِ فِي مَسَارَاتِهَا كَافَّةً؛ نَشْرًا لِلضَّمَانَاتِ الَّتِي تُكْفُ عَنْهَا العَثَارَ وَالتَّعَثُّرَ فِي مِثَانِي الطَّلَبِ وَالعَمَلِ؛ مِنْ تَمُوجَاتِ فِكْرِيَّةِ، وَعَقْدِيَّةِ، وَسُلُوكِيَّةِ، وَطَائِفِيَّةِ، وَجِزْبِيَّةِ... .
وَقَدْ جَعَلْتُ طَوْعًا أَيْدِيَهُمْ رِسَالَةً فِي «التَّعَالَمِ» تَكْشِفُ المُنْدَسِّينَ بَيْنَهُمْ خَشِيَّةً أَنْ يُرَدُّوهُمْ، وَبُضَيْعُوا عَلَيْهِمْ أَمْرَهُمْ، وَبُعِثَرُوا مَسِيرَتَهُمْ فِي الطَّلَبِ،

فيستلّوهم وهم لا يشعرون .

واليوم أخوك يشدُّ عَضُدَكَ ، وبأخذ بيدك ، فأجعل طَوْعَ بِنَانِكَ رسالةً
تحملُ «الصفة الكاشفة»^(١) لِجِلِّيتِكَ ، فها أنذا أجعلُ سِنَّ القلمِ على
القِرطاسِ ، فأتلُّ ما أرقمُ لك أَنْعمَ اللهُ بك عَيْنًا^(٢) :

لقد توارَدَتِ مُوجِبَاتُ الشرعِ على أن التحلّي بمحاسن الآداب ،
ومكارم الأخلاق ، والهدّي الحسن ، والسَّمْت الصالح : سِمَةً أهل
الإسلام ، وأن العلم - وهو أئمن دُرَّة في تاج الشرع المُطَهَّر - لا يصلُ إليه
إلا المُتَحَلِّي بآدابه ، المُتَحَلِّي عن آفاته ، ولهذا عناها العلماء بالبحث
والتنبيه ، وأفردوها بالتأليف ، إمّا على وَجْه العموم لكافة العلوم ، أو على وَجْه
الخصوص ؛ كآدابِ حَمَلَةِ القرآن الكريم ، وآدابِ المُحَدِّث ، وآدابِ
المُفتي ، وآدابِ القاضي ، وآدابِ المُحتَسِب ، وهكذا . . .

والشأن هنا في الآدابِ العامّةِ لمن يسلكُ طريقَ التعلّمِ الشرعي .

وقد كان العلماء السابقون يُلقِّنون الطلاب في حلقِ العلمِ آدابَ

(١) الصفة الكاشفة : هذه من مصطلحات كُتُبِ المبادئ «لسان العرب» .

ومنه ما في مادة (ظبا) من «القاموس» ؛ قال الزبيدي في «تاج العروس» (١ / ٣٣٢) :

«الظباة هي : الضبع (المرجاء) صفة كاشفة» اهـ .

وهذا الوجه من الصفة هو الذي يُراد به تمييز الموصوف الذي لا يُعلم ؛ ليميز من سائر

الأجناس بما يكشفه .

انظر حرف الصاد من «الكليات» (٣ / ٩٢) .

(٢) أوضحتُ في حرف الألف من «معجم المناهي اللفظية» أنّ هذا اللفظُ : (أنعم

الله بك عينا) لا يصحُّ النهي عنه .

الطلب، وأدركتْ خَبَرَ آخِرِ الْعِقْدِ فِي ذَلِكَ فِي بَعْضِ حَلَقَاتِ الْعِلْمِ فِي
المسجد النبوي الشريف؛ إذ كان بعضُ المُدرِّسين فيه، يُدرِّسُ طُلابه
كتاب الرُّزْنُوجِي (م سنة ٥٩٣هـ) رحمه الله تعالى، المسمَّى: «تعليم
المُتعلِّم طريقَ التعلُّم»^(١).

فَعَسَى أَنْ يَصِلَ أَهْلُ الْعِلْمِ هَذَا الْحَبْلَ الْوَثِيقَ الْهَادِي لِأَقْوَمِ طَرِيقِ،
فَيُدرِّجُ تَدْرِيسُ هَذِهِ الْمَادَّةِ فِي فَوَاتِحِ دُرُوسِ الْمَسَاجِدِ، وَفِي مَوَادِّ الدِّرَاسَةِ
النِّظَامِيَّةِ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ هَذَا التَّقْيِيدُ فَاتِحَةً خَيْرٍ فِي التَّنْبِيهِ عَلَى إِحْيَاءِ هَذِهِ
الْمَادَّةِ الَّتِي تُهَدَّبُ الطَّالِبُ، وَتَسْلُكُ بِهِ الْجَادَّةَ فِي آدَابِ الطَّلَبِ وَحَمَلِ
الْعِلْمِ، وَأَدَبِهِ مَعَ نَفْسِهِ، وَمَعَ مُدْرِّسِهِ، وَدَرَسِهِ، وَزَمِيلِهِ، وَكِتَابِهِ، وَثَمَرَةَ
عِلْمِهِ، وَهَكَذَا فِي مَرَاحِلِ حَيَاتِهِ.

فإِليكِ حِلْيَةٌ تَحْوِي مَجْمُوعَةَ آدَابِ، نَوَاقِضُهَا مَجْمُوعَةُ آفَاتِ، فَإِذَا
فَاتَ أَدَبٌ مِنْهَا؛ اقْتَرَفَ الْمُفْرَطُ آفَةً مِنْ آفَاتِهِ، فَمُقِلٌّ وَمُسْتَكْثَرٌ، وَكَمَا أَنَّ هَذِهِ
الْآدَابَ دَرَجَاتٌ صَاعِدَةٌ إِلَى السُّنَّةِ فَالْوَجُوبُ؛ فَنَوَاقِضُهَا دَرَكَاتٌ هَابِطَةٌ إِلَى
الْكِرَاهَةِ فَالتَّحْرِيمُ.

وَمِنْهَا مَا يَشْمَلُ عُمُومَ الْخَلْقِ مِنْ كُلِّ مَكْلَفٍ، وَمِنْهَا مَا يَخْتَصُّ بِهِ
طَالِبُ الْعِلْمِ، وَمِنْهَا مَا يُدْرِكُ بِضُرُورَةِ الشَّرْعِ، وَمِنْهَا مَا يُعْرَفُ بِالطَّبْعِ، وَيَدُلُّ
عَلَيْهِ عُمُومُ الشَّرْعِ؛ مِنَ الْحَمَلِ عَلَى مَحَاسِنِ الْآدَابِ، وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ،
وَلَمْ أَعْنِ الْاسْتِيفَاءَ، لَكِنَّ سِيَاقَتَهَا تَجْرِي عَلَى سَبِيلِ ضَرْبِ الْمَثَالِ؛ قَاصِدًا

(١) طبع مراراً، وهو مع إفادته فيه ما يقتضي التنبيه، فليعلم، والله أعلم.

الدلالة على المُهمّاتِ، فإذا وافقت نفساً صالحَةً لها؛ تناولت هذا القليلَ فَكَثَّرَتْهُ، وهذا المجملُ ففصّلته، ومن أخذَ بها؛ انتفع ونفع، وهي بدورها مأخوذةٌ من أدبٍ من بارك اللهُ في عِلْمِهِم، وصاروا أئمةً يُهتدى بهم، جَمَعْنَا اللهُ بهم في جَنَّتِهِ آمين^(١).

بكر بن عبد الله أبو زيد

في ٥ / ٨ / ١٤٠٨ هـ



(١) من هذه الكتب: «الجامع» للخطيب البغدادي رحمه الله تعالى، و«الفقيه والمتفقه» له، و«تعليم المتعلم طريق التعلم» للزرنوجي، و«آداب الطلب» للشوكاني، و«أخلاق العلماء» للأجري، و«آداب المتعلمين» لسحنون، و«الرسالة المفصلة لأحكام المتعلمين» للقاسبي، و«تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة، و«الحث على طلب العلم» للمسكري، و«فضل علم السلف على الخلف» لابن رجب، و«جامع بيان العلم» لابن عبد البر، و«العلم؛ فضله وطلبه» للأمين الحاج، و«فضل العلم» لمحمد أرسلان، و«مفتاح دار السعادة» لابن القيم، و«شرح الإحياء» للزبيدي، و«جواهر العقدين» للسهمودي، و«آداب العلماء والمتعلمين» للحسين بن منصور - منتخب من الذي قبله -، و«قانون التأويل» لابن العربي، و«العزلة» للخطابي، و«من أخلاق العلماء» لمحمد سليمان، و«مناهج العلماء» لفاروق السامرائي، و«التعليم والإرشاد» لبدر الدين الحلبي، و«الذخيرة للقرافي» الجزء الأول، والأول من «المجموع» للنسوي، و«تشجيع الهمم إلى العلم» لمحمد بن إبراهيم الشيباني، و«رسائل الإصلاح» لمحمد الخضر حسين، و«آثار محمد البشير الإبراهيمي».

وغيرها كثير، أجزل الله الأجر للجميع آمين.

الفصل الأول آدابُ الطالبِ في نفسه

١ - العِلْمُ عبادةٌ (١):

أصلُ الأصولِ في هذه «الحِلْيَةِ» بل ولكل أمرٍ مطلوبٍ عِلْمُكَ بأنَّ العِلْمَ عبادةٌ؛ قال بعضُ العلماء: «العِلْمُ صلاةُ السرِّ، وعبادةُ القلبِ». وعليه؛ فإن شرطَ العبادةِ:

١ - إخلاصُ النيةِ لله سبحانه وتعالى؛ لقوله:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءً...﴾ الآية.

وفي الحديثِ الفردِ المشهورِ عن أمير المؤمنين عَمَرَ بن الخطابِ رضي اللهُ عنه أن النبي ﷺ قال:

«إنما الأعمالُ بالنيَّات...» الحديث.

فإن فَقَدَ العِلْمُ إخلاصَ النيةِ؛ انتقل من أفضل الطاعات إلى أخطأ

(١) «فتاوى ابن تيمية» (١٠ / ١١، ١٢، ١٤، ١٥، ٤٩ - ٥٤ و ١١ / ٣١٤ و ٢٠٧).

المخالفات، ولا شيء يُحطَّم العلمَ مثلُ: الرياء؛ رياء شرك، أو رياء إخلاص^(١)، ومثل التسميع؛ بأن يقول مُسمِعاً: علمتُ وحفظتُ . . .

وعليه؛ فالترجم التخلُّص من كل ما يشوب نيَّتَكَ في صدق الطلب؛ كحُبِّ الظهور، والتفوق على الأقران، وجعله سُلماً لأغراض وأعراض؛ من جاه، أو مال، أو تعظيم، أو سُمعة، أو طلبِ محمديَّة، أو صرفِ وجوه الناس إليك؛ فإنَّ هذه وأمثالها إذا شابَت النيةَ؛ أفسدتها، وذهبت بركةُ العلم، ولهذا يتعيَّن عليك أن تحمي نيَّتَكَ من شوبِ الإرادة لغير الله تعالى، بل وتحمي الحمى

وللعلماء في هذا أقوالٌ وموقفٌ بيَّنَتْ طرفاً منها في المبحث الأول من كتاب «التعاليم»، ويزاد عليه نهْيُ العلماء عن «الطُّبوليات»، وهي المسائل التي يُراد بها الشهرة.

وقد قيل: «زلَّة العالم مضروبٌ لها الطُّبْل»^(٢).

وعن سفيانَ رحمه الله تعالى أنه قال:

«كنتُ أوتيتُ فهمَ القرآن، فلما قبلتُ الصُّرة؛ سُلِّبته»^(٣).

(١) «الذخيرة» للقرافي (١ / ٤٥).

وانظر مبحثاً نفسياً في «تهذيب الآثار» للطُّبري (٢ / ١٢١ - ١٢٢) طبع في مطابع الصفا بمكة.

(٢) «الصورام والأسنة» لأبي مَدِين الشنقيطي السلفي رحمه الله تعالى.

وانظر: «شرح الإحياء»، وعنه «كنوز الأجداد» (ص ٢٦٣).

(٣) «تذكرة السامع والمنتكلم» (ص ١٩).

فاستمسك رَحِمَك اللهُ تعالى بالعروة الوثقى العاصمة من هذه الشوائب؛ بأن تكون - مع بذل الجهد في الإخلاص - شديد الخوف من نواقضه، عظيم الافتقار والالتجاء إليه سبحانه.

ويؤثر عن سفيان بن سعيد الثوري رحمه الله تعالى قوله:

«ما عالجتُ شيئاً أشدَّ علي من نيتي».

وعن عُمر بن دَرٍّ أنه قال لوالده: يا أبي! مالك إذا وعظت الناس أخذهم البكاء، وإذا وعظهم غيرك لا يبكون؟ فقال: يا بُني! ليستِ النائحة الشكلى مثل النائحة المُستأجرة^(١).

وفَقَّك اللهُ لرشدك آمين.

٢ - الخصلة الجامعة لخيري الدنيا والآخرة؛ «محبَّة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ»، وتحقيقها بتمحُّض المتابعة وقفِّ الأثر للمعصوم.

قال اللهُ تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

وبالجُملة؛ فهذا أصل هذه «الحلِية»، ويقعان منها موقع التاج من الحُلَّة.

فيا أيها الطلاب! ها أنتم هؤلاء تربعتم للدرس، وتعلقتُم بأنفس

(١) «العقد الفريد» لابن عبد ربه.

عَلَيْهِ (طَلَبِ الْعِلْمِ)؛ فَاوَصِيكُمْ وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ؛
فَهِيَ الْعُدَّةُ، وَهِيَ مَهْبِطُ الْفَضَائِلِ، وَمُنْتَزَلُ الْمَحَامِدِ، وَهِيَ مَبْعَثُ الْقُوَّةِ،
وَمِعْرَاجُ السُّمُومِ، وَالرَّابِطُ الْوَثِيقَ عَلَى الْقُلُوبِ عَنِ الْفِتَنِ، فَلَا تُفَرِّطُوا.

٢ - كُنْ عَلَى جَاذَةِ السَّلْفِ الصَّالِحِ

كُنْ سَلْفِيًّا عَلَى الْجَاذَةِ؛ طَرِيقَ السَّلْفِ الصَّالِحِ مِنَ الصُّحَابَةِ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمْ، فَمَنْ بَعْدَهُمْ مِمَّنْ قَفَا أَثَرَهُمْ فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ الدِّينِ؛ مِنْ
التَّوْحِيدِ، وَالْعِبَادَاتِ، وَنَحْوِهَا، مُتَمَيِّزًا بِالتَّزَامِ آثَارِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَتَوْظِيفِ
السُّنَنِ عَلَى نَفْسِكَ، وَتَرْكِ الْجِدَالِ، وَالْمَرَاءِ، وَالْخَوْضِ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ،
وَمَا يَجْلِبُ الْآثَامَ، وَيَصُدُّ عَنِ الشَّرْعِ.

قال الذهبي رحمه الله تعالى (١):

«وَصَحَّ عَنِ الدَّارِقُطْنِيِّ أَنَّهُ قَالَ: مَا شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ عِلْمِ الْكَلَامِ.
قُلْتُ: لِمَ يَدْخُلُ الرَّجُلُ أَبَدًا فِي عِلْمِ الْكَلَامِ وَلَا الْجِدَالِ، وَلَا خَاضَ فِي
ذَلِكَ، بَلْ كَانَ سَلْفِيًّا» اهـ.

وهؤلاء هم (أهل السنة والجماعة)، المُتَّبِعُونَ آثَارَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،
وهم كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى (٢):

«وَأَهْلُ السُّنَّةِ: نِقَاةُ الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ خَيْرُ النَّاسِ لِلنَّاسِ» اهـ.
فَالزَّمِ السَّبِيلَ، «وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرُقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ».

(١) «السير».

(٢) «منهاج السنة» (٥/ ١٤٨)، طبع جامعة الإمام.

أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت علي بن أبي طالب يقول:

«هَتَفَ الْعِلْمُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ، وَإِلَّا اِزْتَحَلَ» اهـ.

وهذا اللفظ بنحوه مروى عن سفيان الثوري رحمه الله تعالى.

٤ - دوام المراقبة:

التحلي بدوام المراقبة لله تعالى في السر والعلن؛ سائراً إلى ربك بين الخوف والرجاء؛ فإنهما للمسلم كالجنحين للطائر.

فَأَقْبِلْ عَلَى اللَّهِ بِكُلِّيَّتِكَ، وَلِيَمْتَلِءْ قَلْبُكَ بِمَحَبَّتِهِ، وَلِسَانُكَ بِذِكْرِهِ، وَالْأَسْتَبْشَارِ وَالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ بِأَحْكَامِهِ وَحِكْمِهِ سُبْحَانَهُ.

٥ - خَفْضُ الْجَنَاحِ وَنَبْذُ الْخِيَلَاءِ وَالْكِبْرِيَاءِ:

تَحَلَّ بِآدَابِ النَّفْسِ؛ مِنَ الْعَفَافِ، وَالْحِلْمِ، وَالصَّبْرِ، وَالتَّوَاضُعِ لِلْحَقِّ، وَسُكُونِ الطَّائِرِ؛ مِنَ الْوَقَارِ، وَالرُّزَانَةِ، وَخَفْضِ الْجَنَاحِ؛ مُتَحَمِّلاً ذُلَّ التَّعَلُّمِ لِعِزَّةِ الْعِلْمِ، ذَلِيلًا لِلْحَقِّ.

وعليه؛ فاحذَرْ نواقضَ هذه الآداب؛ فإنها مع الإثم تُقيم على نفسك شاهداً على أن في العقل علة، وعلى حرمان من العلم والعمل به، فيإيك والخيلاء؛ فإنه نفاق وكبرياء، وقد بلغ من شدة التوقي منه عند السلف مبلغاً:

ومن دقيقه ما أسنده الذهبي في ترجمة عمرو بن الأسود العنسي المتوفى في خلافة عبد الملك بن مروان رحمه الله تعالى: أنه كان إذا خرج

من المسجد قَبْضَ بِيَمِينِهِ عَلَى شِمَالِهِ، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: مَخَافَةٌ أَنْ تُنَافِقَ يَدِي.

قُلْتُ: يُمَسِّكُهَا خَوْفًا مِنْ أَنْ يَخْطُرَ بِيَدِهِ فِي مَشِيئَتِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْخِيَلَاءِ (١) اهـ.

وهذا العارِضُ عَرَضٌ لِلْعَنَسِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

وَاحْذَرِ دَاءَ الْجَبَابِرَةِ: (الْكِبَرُ)؛ فَإِنَّ الْكِبَرَ وَالْحِرْصَ وَالْحَسَدَ أَوَّلُ ذَنْبٍ عَصِيَّ اللهُ بِهِ (٢)، فَتَطَاوَلُكَ عَلَى مُعَلِّمِكَ كِبْرِيَاءً، وَاسْتِنكَافُكَ عَمَّنْ يَفِيدُكَ مِمَّنْ هُوَ دُونَكَ كِبْرِيَاءً، وَتَقْصِيرُكَ عَنِ الْعَمَلِ بِالْعِلْمِ حَمَاءُ كِبَرٍ، وَعَنْوَانُ حِرْمَانٍ.

الْعِلْمُ حَرْبٌ لِلْفِتَنِ الْمُتَعَالِي

كَالسَّيْلِ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِي

فَالزَّمْ - رَحِمَكَ اللهُ - اللُّصُوقَ إِلَى الْأَرْضِ، وَالْإِزْرَاءَ عَلَى نَفْسِكَ، وَهَضْمَهَا، وَمُرَاعَمَتَهَا عِنْدَ الاسْتِشْرَافِ لِكِبْرِيَاءٍ أَوْ غَطْرَسِيَّةٍ أَوْ حُبِّ ظَهْوَرٍ أَوْ عَجَبٍ... وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ آفَاتِ الْعِلْمِ الْقَاتِلَةِ لَهُ، الْمُدْهَبَةِ لِهَيْئَتِهِ، الْمُطْفِئَةِ لِنُورِهِ، وَكُلَّمَا ازْدَدَتْ عِلْمًا أَوْ رَفَعَةً فِي وِلَايَةٍ؛ فَالزَّمْ ذَلِكَ؛ تُحَرِّزُ سَعَادَةً عَظِيمًا، وَمَقَامًا يَغْبِطُكَ عَلَيْهِ النَّاسُ.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ الْإِمَامِ الْحُجَّةِ الرَّائِدِ فِي الْكُتُبِ السُّنَّةِ بَكْرِ بْنِ

(١) «فهرس الفتاوى» (٣٦ / ١٩٣).

(٢) «السيرة» (٤ / ٨٠).

عبدالله المُزَنِي رحمهما الله تعالى ؛ قال :

«سمعتُ إنساناً يُحَدِّثُ عن أبي ، أنه كان واقفاً بعرفة ، فرَّق ، فقال :
لولا أنّي فيهم ؛ لقلتُ : قد عُفِرَ لهم» .

خَرَجَهُ الذهبي^(١) ، ثم قال :

«قلتُ : كذلك ينبغي للعَبْدِ أن يُزري على نفسه ويَهْضِمَهَا» اهـ .

٦ - القناعة والزُهادة :

التَّحَلِّي بِالْقَنَاعَةِ وَالزُّهَادَةِ ، وَحَقِيقَةُ الزُّهْدِ^(٢) : «الزهدُ بالحرام ،
والابتعادُ عن حِمَاهِ ؛ بِالكَفِّ عَنِ الْمُشْتَبَهَاتِ وَعَنِ التَّطَلُّعِ إِلَى مَا فِي أَيْدِي
الناس» .

ويؤثّرُ عن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى^(٣) :

«لَوْ أَوْصَى إنسانٌ لِأَعْقَلِ الناسِ ؛ صُرِفَ إلى الزُّهَادِ» .

وعن محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله تعالى لَمَّا قِيلَ لَهُ : أَلَا
تُصَنِّفُ كِتَاباً فِي الزُّهْدِ؟ قال :

«قد صَنَنْتُ كِتَاباً فِي السُّبُوحِ»^(٤) .

يعني : «الزاهدُ من يتحرَّزُ عَنِ الشُّبُهَاتِ ، وَالْمَكْرُوهَاتِ ؛ فِي

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤ / ٥٣٤) .

وانظر كلاماً نفسياً لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في : «مجموع الفتاوى»

(١٤ / ١٦٠) .

(٢ - ٤) «تعليم المتعلم» للزرنجي (ص ٢٨) .

التجارات، وكذلك في سائر المعاملات والحرف اهـ.
وعليه؛ فليكن معتدلاً في معاشه بما لا يُشينه، بحيث يَصُونُ نفسه
وَمَنْ يَعُولُ، ولا يَرِدُ مواطنَ الذَّلَّةِ والهُونِ.

وقد كان شيخنا محمد الأمين الشنقيطي المتوفى في ١٧ / ١٢ /
١٣٩٣ هـ رحمه الله تعالى مُتَقَلِّلاً من الدنيا، وقد شاهدته لا يعرف فئات
العملة الورقية، وقد شافهني بقوله:

«لقد جئتُ من البلاد - شنقيط - ومعي كَنْزٌ قَلٌّ أن يُوجَدَ عند أحدٍ،
وهو (القناعة)، ولو أردتُ المناصبَ؛ لعرفتُ الطريقَ إليها، ولكني لا أؤثر
الدنيا على الآخرة، ولا أبذلُ العلمَ لنيلِ المآربِ الدنيويةِ».
فرحمه الله تعالى رحمةً واسعةً آمين.

٧ - التَّحَلِّي بِرَوْتِقِ الْعِلْمِ :

التَّحَلِّي - (روتق العلم) حُسْنُ السُّمْتِ، والهُدْيُ الصَّالِحُ، من دَوَامِ
السَّكِينَةِ، والوَقَارِ، والخُشُوعِ، والتواضُعِ، ولزومِ المَحَجَّةِ؛ بعمارة الظاهر
والباطن، والتَّخَلِّي عن نواقِضِهَا.

وعن ابن سيرين رحمه الله تعالى قال:

«كانوا يتعلمون الهدْيَ كما يتعلمون العلم».

وعن رجاء بن حيوة رحمه الله تعالى أنه قال لرجل:

«حَدِّثْنَا، ولا تُحَدِّثْنَا عن مُتَمَاوِتٍ ولا طَعَّانٍ».

رواهما الخطيب في «الجامع»، وقال^(١):

«يجبُ على طالب الحديث أن يتجنب: اللعِبَ، والعبَثَ، والتبَدُّلَ في المجالس؛ بالسُّخْفِ، والضحكِ، والقهقهةِ، وكثرة التنادُرِ، وإدمان المُزاحِ والإكثارِ منه، فإنما يُستجاز من المُزاحِ بيسيره ونادره وطريفه، والذي لا يُخرج عن حَدِّ الأدبِ وطريقةِ العلمِ، فأما مُتصلُهُ وفاحشُهُ وسخيفُهُ وما أوغر منه الصدورَ وجَلَبَ الشرُّ؛ فإنه مذمومٌ، وكثرةُ المزاحِ والضحكِ يَضَعُ من القَدْرِ، ويُزِيلُ المروءةَ» اهـ.

وقد قيل: «مَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ؛ عُرِفَ بِهِ».

فتجنب هاتيك السَّقَطَاتِ فِي مُجَالَسَتِكَ وَمُحَادَثَتِكَ.
وَبَعْضُ مَنْ يَجْهَلُ يظُنُّ أَنَّ التَّبَسُّطَ فِي هَذَا أَرْحَبِيَّةٌ.

وعن الأحنفِ بن قيسٍ قال:

«جَنَّبُوا مَجَالَسَنَا ذَكَرَ النِّسَاءِ وَالطَّعَامِ؛ إِنِّي أُبْغِضُ الرَّجُلَ يَكُونُ وَصَافًا

لِفَرْجِهِ وَبَطْنِهِ»^(٢).

وفي كتابِ المُحَدَّثِ المُلْهَمِ أمير المؤمنين عُمَرُ بن الخطابِ رضي

الله عنه في القضاء:

«وَمَنْ تَزَيَّنَ بِمَا لَيْسَ فِيهِ؛ شَانَهُ اللهُ».

(١) «الجامع» (١ / ١٥٦).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤ / ٩٤).

وانظر شرحه لابن القيم رحمه الله تعالى^(١).

٨ - تَحَلُّ بِالْمُرُوءَةِ^(٢):

التحلِّي بـ (المروءة)، وَمَا يَحْمِلُ إِلَيْهَا؛ من مكارمِ الأخلاقِ، وطلاقةِ الوجه، وإفشاءِ السلام، وتحلُّلِ الناس، والأَنْفَةِ من غيرِ كبرياءٍ، والعزَّةِ في غيرِ جَبْرُوتٍ، والشهامةِ في غيرِ عصبيةٍ، والحميةِ في غيرِ جاهليةٍ.

وعليه؛ فتنكَّب (خوارمَ المروءة)؛ في طَبَعٍ، أو قولٍ، أو عملٍ؛ من حِرْفَةِ مَهِينَةٍ، أو خَلَّةِ رَدِيئَةٍ؛ كالمُعْجَبِ، والرياءِ، والبَطْرِ، والخِيَلَاءِ، واحتقارِ الآخرين، وغَشْيَانِ مواطنِ الرَّبِّ.

٩ - التمتعُ بخصالِ الرجولةِ:

تَمَتُّعٌ بخصالِ الرجولةِ؛ من الشجاعةِ، وشِدَّةِ البأسِ في الحقِّ، ومكارمِ الأخلاقِ، والبَذْلِ في سبيلِ المعروفِ، حتى تنقطعَ دونك آمالُ الرجالِ.

وعليه؛ فاحذَرِ نواقضَها؛ من ضعفِ الجأشِ، وقَلَّةِ الصبرِ، وضعفِ المكارمِ، فإنها تَهْضِمُ العلمَ، وتقطعُ اللسانَ عن قَوْلَةِ الحقِّ، وتأخذُ بناصيتهِ إلى خصومهِ في حالةٍ تَلْفَحُ بِسُومِها في وجوهِ الصالحينِ من عبادهِ.

(١) «إعلام الموقعين» (٢ / ١٦١ - ١٦٢).

(٢) فيها مؤلفات مفردة، انظر: «معجم الموضوعات المطروقة» (ص ٣٩٢).

١٠ - هَجْرُ التَّرَفِّهِ :

لا تسترسل في (التنعم والرفاهية)؛ فإن «البذاذة من الإيمان»^(١)،
وخذ بوصية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كتابه
المشهور، وفيه:

«وإياكم والتنعم وزِي العجم، وتمعدوا، واخشوشنوا...»^(٢).

وعليه؛ فأزود عن زَيْفِ الحضارة؛ فإنه يُؤنثُ الطَّبَاعَ، ويُرخي
الأعصابَ، ويُقيدُك بخيط الأوهام، ويصلُّ المُجدونَ لغاياتهم وأنت لم تَبْرَحْ
مكانك، مشغولٌ بالتأنق في ملبسك، وإن كان منها شِيآتٍ ليست محرمةً ولا
مكروهةً، لكن ليست سَمْتاً صالحاً، والحليَّةُ في الظاهر كاللباسِ عنوانُ
على انتماء الشخص، بل تحديدٌ له، وهل اللباسُ إلا وسيلةٌ من وسائل
التعبيرِ عن الذاتِ؟!!

فكن حذراً في لباسِك؛ لأنه يُعبِّرُ لغيرك عن تقويمِك؛ في الانتماء،
والتكوين، والذوق، ولهذا قيل: الحليَّةُ في الظاهر تدلُّ على ميلٍ في
الباطن، والناسُ يُصنِّفونك من لباسِك، بل إن كَيْفِيَّةَ اللُّبْسِ تُعطي للناظرِ
تصنيفَ اللابسِ من:

(١) كما صحَّ عن النبي ﷺ، راجع له: «السلسلة الصحيحة» (رقم ٣٤١) و«تعظيم
قدر الصلاة» (رقم ٤٨٤) لابن نصر المروزي.

(٢) «مسند علي بن الجعد» (١ / ٥١٧) (رقم ١٠٣٠)، وعنه «الفروسية» لابن القيم
(ص ٩)، و«أدب الإملاء والاستملاء» (ص ١١٨).
وأصله في الصحيحين وغيرهما.

الرِّصَانَةُ وَالتَّعَقُّلُ .

أَوْ التَّمَشِيخُ وَالرَّهْبَانِيَّةُ .

أَوْ التَّصَابِي وَحُبُّ الظُّهُورِ .

فَخُذْ مِنَ اللِّبَاسِ مَا يُزِينُكَ وَلَا يُشِينُكَ ، وَلَا يَجْعَلُ فِيكَ مَقَالًا لِقَائِلٍ ،
وَلَا لَمَزًا لِلْأَمْرِ ، وَإِذَا تَلَقَى مَلْبَسُكَ وَكَيْفِيَّةُ لُبْسِكَ بِمَا يَلْتَقِي مَعِ شَرَفٍ مَا
تَحْمَلُهُ مِنَ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ ؛ كَانَ أَدْعَى لِتَعْظِيمِكَ وَالِانْتِفَاعِ بِعِلْمِكَ ، بَلْ
بِحُسْنِ نَيْتِكَ يَكُونُ قُرْبَةً ؛ إِنَّهُ وَسِيلَةٌ إِلَى هِدَايَةِ الْخَلْقِ لِلْحَقِّ .

وَفِي الْمَأْثُورِ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١) :

« أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَنْظَرَ الْقَارِيءَ أبيضَ الثِّيَابِ » .

أَيَ : لِيَعْظُمَ فِي نَفُوسِ النَّاسِ ، فَيَعْظُمَ فِي نَفُوسِهِمْ مَا لَدَيْهِ مِنَ

الْحَقِّ .

وَالنَّاسُ - كَمَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - كَأَسْرَابِ

الْقَطَا ، مَجْبُولُونَ عَلَى تَشْبِهِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ (٢) .

فَإِيَّاكَ ثُمَّ إِيَّاكَ مِنْ لِبَاسِ التَّصَابِي ، أَمَّا اللِّبَاسُ الْإِفْرَنْجِيُّ ؛ فَغَيْرُ خَافٍ

عَلَيْكَ حُكْمُهُ ، وَلَيْسَ مَعْنَى هَذَا أَنْ تَأْتِيَ بِلِبَاسٍ مُشَوِّهٍ ، لَكِنَّهُ الْاِقْتِصَادُ فِي

اللِّبَاسِ بِرِسْمِ الشَّرْعِ ، تَحْفَهُ بِالسَّمْتِ الصَّالِحِ وَالْهَدْيِ الْحَسَنِ .

وَتَطَلَّبُ دَلَائِلِ ذَلِكَ فِي كِتَابِ السُّنَّةِ وَالرِّقَاقِ ، لَا سِيَّمَا فِي «الْجَامِعِ»

(١) «الإحكام» للقرافي (ص ٢٧١) .

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨ / ١٥٠) .

للخطيب^(١).

ولا تستنكر هذه الإشارة؛ فمزال أهل العلم يُبْهون على هذا في
كُتُب الرِّقَاقِ والأَدَابِ واللِّبَاسِ^(٢)، والله أعلم.

١١ - الإِعْرَاضُ عَنِ مَجَالِسِ اللُّغُو:

لا تَطَأُ بَسَاطَ مَنْ يَغْشُونَ فِي نَادِيهِمُ المُنْكَرَ، وَيَهْتِكُونَ أَسْتَارَ الأَدَبِ؛
مُتَغَابِياً عَنِ ذَلِكَ، فَإِنَّ فَعَلْتَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ جَنَائِكَ عَلَى العِلْمِ وَأَهْلِهِ عَظِيمَةٌ.

١٢ - الإِعْرَاضُ عَنِ الهَيْشَاتِ:

التَّصَوُّونُ مِنَ اللُّغَطِ وَالهَيْشَاتِ؛ فَإِنَّ العَلَطَ تَحْتَ اللُّغَطِ، وَهَذَا يُنَافِي
أَدَبَ العِلْمِ.

وَمِنْ لَطِيفٍ مَا يُسْتَحْضَرُ هُنَا مَا ذَكَرَهُ صَاحِبُ «الْوَسِيطِ فِي أَدْبَاءِ
شَنَقِيطٍ» وَعَنْهُ فِي «مُعْجَمِ المَعَاجِمِ»:

«أَنَّهُ وَقَعَ نِزَاعٌ بَيْنَ قَبِيلَتَيْنِ، فَسَعَتَ بَيْنَهُمَا قَبِيلَةٌ أُخْرَى فِي الصِّلْحِ،
فَتَرَاضَوْا بِحُكْمِ الشَّرْعِ، وَحَكَمُوا عَالِماً، فَاسْتَظْهَرَ قَتْلَ أَرْبَعَةٍ مِنْ قَبِيلَةٍ بِأَرْبَعَةٍ
قُتِلُوا مِنَ القَبِيلَةِ الأُخْرَى، فَقَالَ الشَّيْخُ بَابُ بِنِ أَحْمَدَ: مِثْلُ هَذَا لَا قِصَاصَ
فِيهِ. فَقَالَ القَاضِي: إِنَّ هَذَا لَا يُوجَدُ فِي كِتَابِي. فَقَالَ: بَلْ لَمْ يَخُلْ مِنْهُ
كِتَابِي. فَقَالَ القَاضِي: هَذَا «القَامُوسُ» - يَعْنِي أَنَّهُ يَدْخُلُ فِي عَمُومِ كِتَابِي - .»

(١) «الجامع» (١ / ١٥٣ - ١٥٥).

(٢) «أدب الإملاء والاستملاء» (ص ١١٦ - ١١٩)، «اقتضاء الصراط المستقيم».

«مجموع الفتاوى» (٢١ / ٥٣٩)، وانظر «الروح» لابن القيم (ص ٤٠).

فتناولَ صاحبُ الترجمة «القاموس»، وأولُ ما وقعَ نظره عليه: «والهَيْشَةُ: الفتنَةُ، وأُمُّ حُبَيْنٍ»^(١)، وليس في الهَيْشَاتِ قِوَدٌ؛ أي: في القَتِيلِ في الفتنَةِ لا يُدرى قاتلُهُ، فتعجَّبَ الناسُ من مثل هذا الاستحضارِ في ذلك الموقفِ الحَرِجِ، اهـ مُلَخَّصاً.

١٣ - التَّحَلِّيُّ بِالرَّفْقِ:

ألزِمَ الرفقُ في القولِ؛ مُجْتَنِباً الكَلِمَةَ الجافيةَ؛ فَإِنَّ الخِطَابَ اللَّيِّنَ يتأَلَّفُ النفوسَ الناشزةَ.

وأدلةُ الكتابِ والسنةِ في هذا متكاثرةٌ.

١٤ - التَّأْمُلُ:

التَّحَلِّيُّ بالتَّأْمُلِ؛ فَإِنَّ من تأمَّلَ أدركَ، وقيل: «تَأْمَلُ تُدْرِكُ».

وعليه؛ فتأمل عند التكلُّمِ: بماذا تتكلَّمُ؟ وما هي عائِدته؟ وتحرَّزْ في العبارةِ والأداءِ دونَ تعنُّبٍ أو تحذلقٍ، وتأمل عند المذاكرة كيف تختارُ القالبَ المناسبَ للمعنى المرادِ، وتأمل عند سؤال السائل كيف تفهمُ السؤالَ على وجهه حتى لا يَحْتَمِلَ وجهين؟ وهكذا.

١٥ - الثَّبَاتُ وَالتَّثْبِيتُ:

تَحَلَّلْ بالثَّبَاتِ وَالتَّثْبِيتِ، لا سِيَّما في المُلِمَّاتِ وَالمُهِّمَّاتِ، ومنه: الصَّبْرُ وَالثَّبَاتُ في التَّلَقِّيِّ، وَطَيُّ السَّاعَاتِ في الطَّلَبِ على الأشياخِ؛ فَإِنَّ «مَنْ ثَبَّتَ نَبَتًا».

(١) هي قُوَيْتَةٌ.

الفصل الثاني كَيْفِيَّةُ الطَّلَبِ وَالتَّلَقِّي

١٦ - كَيْفِيَّةُ الطَّلَبِ وَمَرَاتِبُهُ :

«مَنْ لَمْ يَتَقَنَّ الْأُصُولَ؛ حُرِمَ الْوُصُولَ»^(١)، و«مَنْ رَامَ الْعِلْمَ جُمْلَةً؛ ذَهَبَ عَنْهُ جُمْلَةً»^(٢)، وَقِيلَ أَيْضاً: «أَزْدِحَامُ الْعِلْمِ فِي السَّمْعِ مَضَلَّةٌ الْفَهْمِ»^(٣).

وعليه؛ فلا بُدَّ من التَّأصيلِ والتَّأسيسِ لِكُلِّ فَنٍّ تَطَلَّبُهُ؛ بِضَبْطِ أَصْلِهِ وَمُخْتَصِرِهِ عَلَى شَيْخٍ مُتَقِنٍ، لَا بِالتَّحْصِيلِ الذَّاتِيِّ وَحْدَهُ؛ وَأَخْذاً الطَّلَبِ بِالتَّدْرِجِ.

قال الله تعالى :

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾.

وقال تعالى :

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص ١٤٤).

(٢) «فضل العلم» لأرسلان (ص ١٤٤).

(٣) «شرح الإحياء» (١ / ٣٣٤).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَّاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ .

وقال تعالى :

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ .

فأمامك أمور لا بُدَّ من مراعاتها في كُلِّ فَنٍّ تطلبه :

١ - حِفْظٌ مختصرٍ فيه .

٢ - ضبطه على شيخٍ مُتَقِنٍ .

٣ - عدمُ الاشتغالِ بالمطوَّلَاتِ وتفاريقِ المصنَّفَاتِ قبل الضبطِ والإتقان لأصله .

٤ - لا تَتَنَقَّلَ من مُختصرٍ إلى آخَرَ بلا موجبٍ ، فهذا من باب الضَّجَرِ .

٥ - اقتناصُ الفوائدِ والضوابطِ العلميَّةِ .

٦ - جمعُ النَّفْسِ للطلبِ والترقي فيه ، والاهتمامُ والتحرُّقُ للتحصيلِ والبلوغِ إلى ما فوقه حتى تفيضَ إلى المطوَّلَاتِ بسابِلَةٍ موثِقَةٍ .

وكان من رأي ابن العربي المالكي^(١) أن لا يخلطَ الطالبُ في التعليمِ بين عِلْمَيْنِ ، وأن يُقَدِّمَ تعليمَ العربيَّةِ والشُّعْرِ والحسابِ ، ثم ينتقلُ منه إلى القرآنِ .

(١) «تراجم الرجال» للخضر حسين (ص ١٠٥) و«فتاوى شيخ الإسلام» ابن تيمية

لكن تعقبه ابن خلدون بأن العوائذ لا تساعد على هذا، وأن المُقَدِّم هو دراسة القرآن الكريم وحفظه؛ لأنَّ الولد مادام في الحجر؛ ينقاد للحكم، فإذا تجاوز البلوغ؛ صَعَبَ جَبْرُهُ.

أما الخلط في التعليم بين علمين فأكثر؛ فهذا يختلف باختلاف المتعلمين في الفهم والنشاط.

وكان من أهل العلم من يُدرِّسُ الفقه الحنبلي في «زاد المُستَفْنِع» للمبتدئين، و«المُفْنِع» لمن بعدهم للخلاف المذهبي، ثم «المُغْنِي» للخلاف العالي، ولا يسمح للطبقة الأولى أن تجلس في درس الثانية... وهكذا؛ دَفْعاً للتشويش.

واعلم أن ذكر المختصرات فالمطولات التي يؤسُّسُ عليه الطلب والتلقي لدى المشايخ تختلف غالباً من قطر إلى قطر باختلاف المذاهب، وما نشأ عليه علماء ذلك القطر من إتقان هذا المختصر والتمرس فيه دون غيره.

والحال هنا تختلف من طالب إلى آخر باختلاف القرائح والفهوم، وقوة الاستعداد وضعفه، وبرودة الذهن وتوقده.

وقد كان الطُّلبُ في قُطْرنا بعد مرحلة الكتابيب والأخذ بحفظ القرآن الكريم يمرُّ بمراحل ثلاث لدى المشايخ في دروس المساجد: للمبتدئين، ثم المتوسطين، ثم المتمكنين:

ففي التوحيد: «ثلاثة الأصول وأدلتها»، و«القواعد الأربع»، ثم

«كشف الشُّبُهَات»، ثم «كتاب التوحيد»؛ أربعتها للشيخ محمد بن عبد الوهَّاب رحمه الله تعالى، هذا في توحيدِ العبادة.

وفي توحيدِ الأسماءِ والصفات: «العقيدة الواسِطِيَّة»، ثم «الحَمَوِيَّة»، و«التدمرية»؛ ثلاثها لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، فـ «الطحاوية» مع «شرحها».

وفي النَحْوِ: «الأجروميَّة»، ثم «مُلحة الإعراب» للحريري، ثم «قَطْر الندى» لابن هشام، و«ألفية ابن مالك» مع «شرحها» لابن عَقِيل.

وفي الحديثِ: «الأربعين» للنسوي، ثم «عمدة الأحكام» للمقدسي، ثم «بلوغ المرام» لابن حَجَر، و«المنتقى» للمجد ابن تيمية؛ رحمهم الله تعالى، فالذُّخُولُ في قراءةِ الأُمَمِ السَّنَّةِ وغيرها.

وفي المصطلح: «نُجْبَةُ الفِكر» لابن حجر، ثم «ألفية العراقي» رحمه الله تعالى.

وفي الفقه مثلاً: «آداب المشي إلى الصلاة» للشيخ محمد بن عبد الوهَّاب، ثم «زاد المستقنع» للحجَّاجي رحمه الله تعالى أو «عمدة الفقه»، ثم «المقنع» للخلاف المذهبي، و«المغني» للخلاف العالي؛ ثلاثها لابن قُدَّامة رحمه الله تعالى.

وفي أصول الفقه: «الوَرَقَات» للجويني رحمه الله تعالى، ثم «روضة الناظر» لابن قُدَّامة رحمه الله تعالى.

وفي الفرائض: «الرَّحْبِيَّة»، ثم مع شروحها، و«الفوائد الجليلة».

وفي التفسير: «تفسير ابن كثير» رحمه الله تعالى .
وفي أصول التفسير: «المقدمة» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .

وفي السيرة النبوية: «مختصرها» للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأصلها لابن هشام، وفي «زاد المعاد» لابن القيم رحمه الله تعالى .
وفي لسان العرب: العناية بأشعارها؛ كـ «المعلقات السبع»، والقراءة في «القاموس» للفيروز آبادي رحمه الله تعالى .

... وهكذا من مراحل الطلب في الفنون .

وكانوا مع ذلك يأخذون بجرد المطولات؛ مثل «تاريخ ابن جرير»، وابن كثير، وتفسيريهما، ويُرَكِّزُونَ على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى، وكتب أئمة الدعوة وفتاويهم، لا سيما مُحَرَّرَاتِهِم في الاعتقاد .

وهكذا كانت الأوقات عامرةً في الطلب، ومجالس العلم، فبعد صلاة الفجر إلى ارتفاع الضحى، ثم تكون القيلولة قبيل صلاة الظهر، وفي أعقاب جميع الصلوات الخمس تُعَقَّدُ الدروس، وكانوا في أدب جَمٍّ وتقدير بعزة نفسٍ من الطرفين على منهج السلف الصالح رحمهم الله تعالى، ولذا أدركوا وصارَ منهم في عداد الأئمة في العلم جمعٌ غفيرٌ، والحمدُ لله رب العالمين .

فهل من عودةٍ إلى أصالة الطلِّب في دراسة المُختَصَرَاتِ المعتمدة،

لا على المذكرات، وفي حفظها لا الاعتماد على الفهم فَحَسْبُ، حتى
ضاع الطلابُ فلا حفظٌ ولا فهمٌ!

وفي خُلُوِّ التلقين من الرُّغْلِ والشوائبِ والكَدْرِ، سِيرٌ على منهاجِ
السلفِ؟

والله المستعان .

وقال الحافظُ عثمان بن خُرَزَادَ (م سنة ٢٨٢هـ) رحمه الله تعالى (١):

«يحتاجُ صاحبُ الحديثِ إلى خمس، فإن عُدِمَتْ واحدةٌ؛ فهي
نقصٌ، يحتاجُ إلى عقلٍ جيّدٍ، ودينٍ، وضبطٍ، وحذاقةٍ بالصُّنَاعَةِ، مع أمانةٍ
تُعْرَفُ منه» .

قلتُ: - أي الذهبيُّ -:

«الأمانةُ جزءٌ من الدين، والضبطُ داخل في الحِذْقِ، فالذي يحتاجُ
إليه الحافظُ أن يكونَ: تقيّاً، ذكياً، نحوياً، لغوياً، زكياً، حياً، سلفياً يكفيه
أن يكتبَ بيديه متي مجلّد، ويحصّلَ من الدواوين المعبّرة خمسَ مئة
مجلّد، وأن لا يفتُرَ من طلبِ العلمِ إلى المماتِ بنيةٍ خالصةٍ، وتواضعٍ،
والأ فلا يتعنُّ» اهـ .

١٧ - تلقّي العلمِ عن الأشياخِ:

الأصلُ في الطلّب أن يكونَ بطريقِ التلقينِ والتلقّي عن الأساتيدِ،

(١) سير أعلام النبلاء، (١٣ / ٣٨٠) .

والمُشَافِنَةِ للأشْيَاحِ ، والأَخْذِ مِنْ أَفْوَاهِ الرِّجَالِ لَا مِنَ الصُّحُفِ وَبَطُونِ
الْكِتَابِ ، وَالأَوَّلُ مِنْ بَابِ أَخَذَ النَّسِيبَ عَنِ النَّاسِيبِ النَّاطِقِ ، وَهُوَ الْمُعَلِّمُ ،
أَمَّا الثَّانِي عَنِ الْكِتَابِ ، فَهُوَ جَمَادٌ ، فَأَتَى لَهُ اتِّصَالُ النَّسَبِ ؟

وقد قيل : « مَنْ دَخَلَ فِي الْعِلْمِ وَحْدَهُ ؛ خَرَجَ وَحْدَهُ »^(١) ؛ أَي : مَنْ
دَخَلَ فِي طَلْبِ الْعِلْمِ بِلا شَيْخٍ ؛ خَرَجَ مِنْهُ بِلا عِلْمٍ ، إِذِ الْعِلْمُ صَنْعَةٌ ، وَكُلُّ
صَنْعَةٍ تَحْتَاجُ إِلَى صَانِعٍ ، فَلَا بُدَّ إِذَا تَعَلَّمَهَا مِنْ مُعَلِّمِهَا الْحَادِقِ .
وهذا يكادُ يكونُ محلَّ إجماعٍ كَلِمَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ؛ إِلا مِنْ شَدِّ
مثل : عَلِيٌّ بِنُ رُضْوَانَ الْمِصْرِيِّ الطَّيِّبِ (م سنة ٤٥٣هـ) ، وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِ
عُلَمَاءُ عَصْرِهِ وَمِنْ بَعْدِهِمْ .

قال الحافظُ الذهبيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي تَرْجُمَتِهِ لَهُ^(٢) :

«لَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْخٌ ، بَلِ اشْتَغَلَ بِالْأَخْذِ عَنِ الْكُتُبِ ، وَصَنَّفَ كِتَابًا فِي
تَحْصِيلِ الصَّنَاعَةِ مِنَ الْكُتُبِ ، وَأَنَّهَا أَوْفَقُ مِنَ الْمُعَلِّمِينَ ، وَهَذَا غَلَطٌ اهـ .
وقَدْ بَسَطَ الصَّفَدِيُّ فِي «الْوَافِي» الرَّدَّ عَلَيْهِ ، وَعَنْهُ الزُّبَيْدِيُّ فِي «شَرْحِ
الإِحْيَاءِ» عَنْ عَدَدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ مُعَلِّلِينَ لَهُ بَعْدَ عِلَلٍ ؛ مِنْهَا مَا قَالَ ابْنُ بَطْلَانَ
فِي الرَّدِّ عَلَيْهِ^(٣) :

(١) «الجواهر والدرر» للسُّخَاوِي (١ / ٥٨) .

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٨ / ١٠٥) .

وانظر : «شرح الإحياء» (١ / ٦٦) ، و«بُغْيَةُ الوَعَاة» (١ / ١٣١ ، ٢٨٦) ، و«شذرات

الذهب» (٥ / ١١) ، و«الغُنيَّة» لِلْقَاضِي عِيَّاضٍ (ص ١٦ - ١٧) .

(٣) «شرح الإحياء» (١ / ٦٦) .

«السادسة: يوجد في الكتاب أشياء تصدُّ عن العلم، وهي معدومة عند المُعَلِّم، وهي التصحيف العارض من اشتباه الحروف مع عدم اللفظ، والغلط بزوغان البصر، وقلة الخبرة بالإعراب، أو فساد الموجود منه، وإصلاح الكتاب، وكتابة ما لا يُقرأ، وقراءة ما لا يكتب، ومذهب صاحب الكتاب، وسقم النسخ، ورداءة النقل، وإدماج القارئ مواضع المقاطع، وخلط مبادئ التعليم، وذكر ألفاظ مُصطلح عليها في تلك الصناعة، وألفاظ يونانية لم يُخرجها الناقل من اللغة؛ كالنوروس، فهذه كلها مُعوقَّة عن العلم، وقد استراح المُتعلِّم من تكليفها عند قراءته على المُعَلِّم، وإذا كان الأمر على هذه الصورة؛ فالقراءة على العلماء أجدى وأفضل من قراءة الإنسان لنفسه، وهو ما أردنا بيانه . . . قال الصفدي: ولهذا قال العلماء: لا تأخذ العلم من صحفي ولا من مُصحفي؛ يعني: لا تقرأ القرآن على من قرأ من المُصحف ولا الحديث وغيره على من أخذ ذلك من المُصحف . . .» اهـ.

والدليل المادي القائم على بطلان نظرية ابن رُضوان: أنك ترى آلاف التراجم والسِّير على اختلاف الأزمان ومرِّ الأعصار وتنوع المعارف، مشحونة بتسمية الشيوخ والتلاميذ ومستقل من ذلك ومستكثر، وانظر شذرة من المكثرين عن الشيوخ حتى بلغ بعضهم الألوفاً كما في «العزَّاب» من «الإسفار» لراقمه.

وكان أبو حَيَّان محمد يوسف الأندلسي (م سنة ٧٤٥هـ) (١) إذا ذُكر

(١) مقدمة التحقيق لكتاب «الغنية» للقاضي عِيَّاض (ص ١٦ - ١٧).

عنده ابنُ مالك ؛ يقول : «أين شيوخه؟» .

«وقال الوليد»^(١) :

كان الأوزاعيُّ يقول : كان هذا العلمُ كريماً يتلاقاه الرجالُ بينهم ،
فلما دَخَلَ في الكُتُبِ ؛ دخل فيه غيرُ أهله .

وروى مثلها ابنُ المبارك عن الأوزاعيِّ .

ولا ريبُ أن الأخذَ من الصُّحُفِ وبالإجازةِ يَقَعُ فيه خَلَلٌ ، ولا سِيما
في ذلك العَصْرِ ، حيثُ لم يكن بَعْدُ نَقْطٌ ولا شَكْلٌ ، فتصحَّفُ الكلمةُ بما
يُحيلُ المعنى ، ولا يَقَعُ مثلُ ذلك في الأخذِ من أفواه الرجالِ ، وكذلك
التحديثُ من الحفظِ يَقَعُ فيه الوَهْمُ ؛ بخلافِ الروايةِ من كتابِ محرِّره اهـ .
ولا بنِ خلدونِ مبحثٌ نفيسٌ في هذا ؛ كما في «المُقَدِّمة»^(٢) له .

ولبعضهم :

مَنْ لم يُشَافِهْ عالِماً بأصوله

فَيَقِينُهُ في المُشكلاتِ ظَنُونٌ

وكان أبو حيان كثيراً ما يُنشدُ :

يَظُنُّ العَمْرُ أن الكُتُبَ تَهْدِي

أخا فَنَهْمِ لإدراكِ العُلومِ

(١) «السير» (٧ / ١١٤) .

(٢) (٤ / ١٢٤٥) .

وما يذري الجهول بأن فيها
غوامض خيّرت عقل الفهيم
إذا رُمّت العلوم بغير شيخ
ضللت عن الصراط المستقيم
وتلتبس الأمور عليك حتى
تصير أضل من «توما الحكيم»

□□□□□

الفصل الثالث أدب الطالب مع شيخه

١٨ - رعاية حرمة الشيخ :

بما أن العلم لا يؤخذ ابتداءً من الكتب بل لا بُدَّ من شيخٍ تتقن عليه مفاتيح الطلب؛ لتأمن من العثار والزلل؛ فعليك إذا بالتحلي برعاية حرمة؛ فإن ذلك عنوان النجاح والفلاح والتحصيل والتوفيق، فليكن شيخك محل إجلال منك وإكرام وتقدير وتلطّف، فخذ بمجامع الآداب مع شيخك في جلوسك معه، والتحدّث إليه، وحسن السؤال والاستماع، وحسن الأدب في تصفّح الكتاب أمامه ومع الكتاب، وترك التناول والممارسة أمامه، وعدم التقدّم عليه بكلامٍ أو مسيرٍ أو إكثار الكلام عنده، أو مُداخلة في حديثه ودّرسه بكلامٍ منك، أو الإلحاح عليه في جواب؛ مُتجنباً الإكثار من السؤال، لا سيما مع شهود الملا، فإن هذا يُوجب لك الغرور وله المَلَل.

ولا تُناديه باسمه مُجرّداً، أو مع لقبه كقولك: يا شيخ فلان! بل قل: يا شيخي! أو يا شيخنا! فلا تُسمّه؛ فإنه أرفع في الأدب، ولا تُخاطبه بثناء

الخطاب، أو تناديه من بُعدٍ من غير اضطراب.

وانظر ما ذكروه الله تعالى من الدلالة على الأدب مع مُعَلِّمِ الناسِ
الخيرِ ﷺ في قوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ
بَعْضًا...﴾ الآية.

وكما لا يليقُ أن تقولَ لوالدك ذي الأبوة الطينية: «يا فلان» أو: «يا
والدي فلان» فلا يَجْمَلُ بك مع شيخك.

والتزم توقيف المجلس، وإظهار السرور من الدرس والإفادة به.
وإذا بدا لك خطأ من الشيخ، أو وهمٌ فلا يُسْقِطُه ذلك من عينك؛
فإنه سببٌ لحرمانك من علمه، ومن ذا الذي ينجو من الخطأ سالماً؟
واحذر أن تمارسَ معه ما يضرُّه، ومنه ما يُسمِّيهِ المؤلِّدون: «حرب
الأعصاب»^(١)؛ بمعنى: امتحانِ الشيخِ على القدرةِ العلميَّةِ والتحمُّلِ.
وإذا بدا لك الانتقالُ إلى شيخٍ آخر؛ فاستأذنه بذلك؛ فإنه ادعى
لحرمة، وأملك لقلبه في محبتك والعطفِ عليك...

إلى آخر جملةٍ من الآدابِ يعرفها بالطبع كلُّ موفِّقٍ مُبارِكٍ وفاءً لحقِّ
شيخك في «أبوتِه الدينيَّة»، أو ما تُسمِّيهِ بعضُ القوانينِ باسمِ «الرِّضاعِ
الأدبي»^(٢)، وتسميَّةُ بعضِ العلماءِ له «الأبوةُ الدينيَّة» اليق، وتركه أنسبُ.
واعلم أنه بقدرِ رعايةِ حرمةِ يكونِ النجاحُ والفلاحُ، وبقدرِ الفتورِ

(١) «معجم التراكيب» لأحمد أبو سَعد (ص ٢٨٣)، تركيب مؤلِّد.

(٢) «مقاصد الشريعة» لعلال الفاسي (ص ٣٣).

يكونُ من علاماتِ الإخفاقِ .

تنبيهٌ مهمٌ :

أعيذك بالله من صنيعِ الأعاجمِ ، والطُرُقِيَّةِ ، والمبتدعةِ الخَلْفِيَّةِ ؛ من الخُضُوعِ الخارجِ عن آدابِ الشرعِ ؛ من لَحْسِ الأيدي ، وتَقْبِيلِ الأكتافِ ، والقَبْضِ على اليمينِ باليمينِ والشمالِ عند السلامِ ؛ كحالِ تودُّدِ الكبارِ للأطفالِ ، والانحناءِ عند السُّلامِ ، واستعمالِ الألفاظِ الرُّخوةِ المتخاذلةِ : سيدي ، مولاي ، ونحوها من ألفاظِ الخَدَمِ والعبيدِ .

وانظر ما يقوله العلامةُ السُّلْفِي الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الجزائري (م سنة ١٣٨٠هـ) رحمه الله تعالى في «البصائر» ؛ فإنه فائقُ السِّياقِ^(١) .

١٩ - رأسُ مالك - أيها الطالبُ - من شيخِكَ :

القدوةُ بصلاحِ أخلاقِهِ وكريمِ شمائلِهِ ، أمَّا التُّلْقِي والتلقينُ ؛ فهو ربيعٌ زائدٌ ، لكن لا يأخذُك الاندفاعُ في محبةِ شيخِكَ فتقعَ في الشناعةِ من حيثُ لا تدري وكلُّ من ينظرُ إليك يَدْرِي ، فلا تُقلِّده بصوتٍ ونعْمَةٍ ، ولا مشيةً وحركةً وهيئةً ؛ فإنه إنما صار شيخاً جليلاً بتلك ، فلا تَسْقُطِ أنت بالتَّبَعِيَّةِ له في هذه .

٢٠ - نشاطُ الشيخِ في درسه :

يكونُ على قَدَرِ مدارِكِ الطالبِ في استماعِهِ ، وجمَعِ نفسه ، وتفاعُلِ

(١) «آثاره» (٤ / ٤٠ - ٤٢) .

أحاسيسه مع شيخه في درسه، ولهذا فاحذر أن تكون وسيلة قطع لعلمه؛
بالكسل، والفطور والاتكاء، وانصراف الذهن وفطوره.

قال الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى (١):

«حَقُّ الفائدة أن لا تُساق إلا إلى مُبتغيها، ولا تُعرض إلا على الراغب
فيها، فإذا رأى المُحدِّث بعض الفُتور من المستمع؛ فليُسكِّت؛ فإن بعض
الأدباء قال: نشاطُ القائلِ على قدرِ فهمِ المستمعِ».

ثم ساق بسنده عن زيد بن وهب، قال:

«قال عبد الله: حَدَّث القومَ ما رَمَقوك بأبصارهم، فإذا رأيتَ منهم
فِترةً؛ فانزع» اهـ.

٢١ - الكتابة عن الشيخ حال الدرس والمذاكرة:

وهي تختلف من شيخ إلى آخر، فافهم.

ولهذا أدب وشرط:

أما الأدب؛ فينبغي لك أن تُعلمَ شيخك أنك ستكتب، أو كتبت ما
سمعتَه مذاكرةً.

وأما الشرط؛ فتشير إلى أنك كتبتَه من سماعه من درسه (٢).

(١) «الجامع» (١ / ٣٣٠).

(٢) «الجامع» (٢ / ٣٦ - ٣٨).

٢٢ - التَّلَقِّي عن المُبتدِع :

أَحْذَرُ (أبا الجهل) المبتدع، الذي مَسَّهُ زَيْغُ العَقِيدَةِ، وَغَشِيَّتُهُ سُحْبُ الخِرَافَةِ، يُحَكِّمُ الهَوَى وَيُسَمِّيهِ العَقْلَ، وَيَعْدِلُ عَنِ النِّصِّ، وَهَلِ العَقْلُ إِلَّا فِي النِّصِّ؟! وَيَسْتَمْسِكُ بِالضَّعِيفِ وَيَبْعُدُ عَنِ الصَّحِيحِ، وَيُقَالُ لَهُمْ أَيْضاً: «أهل الشبهات»^(١)، و«أهل الأهواء»، ولذا كان ابنُ المَبَارِكِ^(٢) رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى يُسَمِّي المبتدعة: «الأصاغر».

وقال الذهبي رحمه الله تعالى^(٣):

«إِذَا رَأَيْتَ المُتَكَلِّمَ المُبْتَدِعَ يَقُولُ: دَعْنَا مِنَ الكِتَابِ والأَحَادِيثِ، وَهَاتِ (العقل)؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ أَبُو جَهْلٍ، وَإِذَا رَأَيْتَ النَّسَالِكَ التَّوْحِيدِيَّ يَقُولُ: دَعْنَا مِنَ النُّقْلِ وَمِنَ العَقْلِ، وَهَاتِ الذُّوقَ وَالوَجْدَ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ إبْلِيسُ قَدْ ظَهَرَ بِصُورَةِ بَشَرٍ، أَوْ قَدْ حَلَّ فِيهِ، فَإِنْ جَبُنْتَ مِنْهُ فَاهْرُبْ، وَإِلَّا؛ فَاصْرَعْهُ، وَابْرُكْ عَلَى صَدْرِهِ، وَاقْرَأْ عَلَيْهِ آيَةَ الكُرْسِيِّ، وَاخْنُقْهُ» اهـ.

وقال أيضاً رحمه الله تعالى^(٤):

«وَقَرَأْتُ بِخَطِّ الشَّيْخِ المُؤَفَّقِ قَالَ: سَمِعْنَا دَرَسَهُ - أَي: ابْنَ أَبِي عَضْرُونَ - مَعَ أَخِي أَبِي عُمَرَ وَانْقَطَعْنَا، فَسَمِعْتُ أَخِي يَقُولُ: دَخَلْتُ عَلَيْهِ بَعْدَ، فَقَالَ: لِمَ انْقَطَعْتُمْ عَنِّي؟ قُلْتُ: إِنَّ نَاساً يَقُولُونَ: إِنَّكَ أَشْعَرِيٌّ،

(١) «الجامع» (١ / ١٣٧).

(٢) في «الزهد» (٦١) له، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (رقم ٦٩٥).

(٣) «السير» (٤ / ٤٧٢).

(٤) «السير» (٢١ / ١٢٩).

فقال: والله ما أنا أشعري. هذا معنى الحكاية اهـ.

وعن مالك رحمه الله تعالى قال^(١):

«لا يُؤخَذُ العلمُ عن أربعةٍ: سفيهٍ يُعلِنُ السُّفَهَ وإن كان أروى الناس،
وصاحبِ بدعةٍ يدعو إلى هواه، ومَن يكذبُ في حديثِ الناس، وإن كنتُ
لا أتبهَمُهُ في الحديثِ، وصالحٍ عابِدٍ فاضلٍ إذا كان لا يحفظُ ما يُحدِّثُ
به».

فيا أيها الطالب! إذا كُنْتُ في السُّعةِ والاختيار؛ فلا تأخذ عن
مبتدعٍ: رافضيٍّ، أو خارجيٍّ، أو مُرجيٍّ، أو قَدَريٍّ، أو قُبوريٍّ، . . .
وهكذا؛ فإنك لن تبلغَ مبلغَ الرجال - صحيحَ العَقْدِ في الدِّين، متينَ
الأتصالِ بالله، صحيحَ النُّظَر، تَقفُو الأثرَ - إلا بهجرِ المبتدعةِ وِبدعِهِم.

وَكُتِبَ السَّيْرُ والاعتصامُ بالسنةِ حافلةً بإجهازِ أهلِ السنةِ على
البدعةِ، ومُنابذةِ المبتدعةِ، والابتعادِ عنهم؛ كما يتعدُّ السليمُ عن الأجرَبِ
المريضِ، ولهم قَصَصٌ وواقعاتٌ يطولُ شَرَحُها^(٢)، لكن يطيبُ لي الإشارةُ
إلى رؤوسِ المُقَيِّداتِ فيها:

فقد كان السُّلْفُ رحمهم الله تعالى يحتسبون الاستخفافَ بهم،
وتحقيرَهُم ورفُضَ المبتدعِ وِبدعتهِ، ويُحذِّرون من مُخالطَتِهِم، ومشاوَرَتِهِم،
ومؤاكلَتِهِم، فلا تتوارى نارُ سُنِّيٍّ ومبتدعٍ.

(١) كما في «السيرة» (٨ / ٦١).

(٢) وفي رسالة «هجر المبتدع» لراقمه أصولٌ مهمَّةٌ في هذه المسألة.

وكان من السلف من لا يُصَلِّي على جنازة مبتدع، فينصرف، وقد شوهده من العلامة الشيخ محمد بن إبراهيم (م سنة ١٣٨٩هـ) رحمه الله تعالى، انصرافه عن الصلاة على مبتدع.

وكان من السلف من ينهى عن الصلاة خلفهم، وينهى عن حكاية بدعهم؛ لأن القلوب ضعيفة، والشبه خطافة.

وكان سهل بن عبدالله التستري لا يرى إباحتها الأكل من الميتة... للمبتدع عند الاضطرار؛ لأنه باغ؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ...﴾ الآية، فهو باغ ببدعته^(١).

وكانوا يطردونهم من مجالسهم؛ كما في قصة الإمام مالك رحمه الله تعالى مع من سأله عن كيفية الاستواء، وفيه بعد جوابه المشهور: «أظنك صاحب بدعة»، وأمر به، فأخرج.

وأخبار السلف متكاثرة في النفرة من المبتدعة وهجرهم؛ حذراً من شرهم، وتحجيماً لانتشار بدعهم، وكسراً لنفوسهم حتى تضعف عن نشر البدع، ولأن في معاشرتنا السني للمبتدع تركية له لدى المبتدع والعامي والعامي: مشتق من العمى، فهو يبيد من يقوده غالباً..

ونرى في كتب المصطلح، وآداب الطلب، وأحكام الجرح والتعديل: الأخبار في هذا^(٢).

(١) «الفتاوى» (٢٨ / ٢١٨)، انظرها؛ فهو مهم.

(٢) منها في: «الجامع للخطيب» (باب: تخيير الشيوخ إذا تباينت أوصافهم) (١٠) =

فيا أيها الطالب! كُنْ سَلْفِيًّا عَلَى الْجَادَّةِ، واحذر المبتدعة أن يفتنوك؛
فإنهم يُوظَّفون للاقتناصِ والمُخاتَلَةِ سُبُلًا، يفتعلون تعبيدها بالكلامِ
المَعْسُولِ - وهو: (عسل) مقلوبٌ - ومُطوَّلِ الدمعة، وحُسنِ البِزَّةِ، والإغراءِ
بالخيالاتِ، والإدهاشِ بالكراماتِ، ولُحْسِ الأيدي، وتقبيلِ الأكتافِ . .
وما وراء ذلك إلا وَحْمُ البدعةِ، وَرَهْجُ الفتنةِ، يَغْرِسُهَا فِي فؤادِكَ، وَيَعْتَمِلُكَ
فِي شِرَاكِه، فوالله لا يَصْلُحُ الأعمى لقيادةِ العميانِ وإرشادهم .

أما الأخذُ عن علماءِ السنةِ؛ فَالْعَقِ العَسَلِ ولا تَسَلِ .

وَفَقَّكَ اللهُ لِرُشْدِكَ؛ لتنهَلَ من ميراثِ النبوةِ صافياً، وإلا؛ فَلْيَبِكْ
على الدينِ من كان باكياً .

وما ذكرته لك هو في حالِ السُّعةِ والاختيارِ، أما إن كُنْتَ في دراسةِ
نظاميةٍ لا خيارَ لك، فاحذَر منه، مع الاستعاذةِ من شرِّه؛ بِالْيَقْظَةِ من
دسائسه على حَدِّ قولهم: «اجنِ الثُّمَارَ وَأَلْقِ الخَشْبَةَ فِي النارِ»، ولا تتخاذَلْ
عن الطَّلَبِ، فأخشى أن يكونَ هذا من التَّوَلَّى يَوْمَ الرُّحْفِ، فما عليك إلا
أن تَتَبَّنَ أمره وتَتَّقِي شره وتكشِفَ سِتْرَه .

وَمِن التَّنْفِ الطَّرِيفَةِ أَنَّ أبا عبد الرحمن المَقْرِيءَ حَدَّثَ عن مُرْجِيءٍ،
فَقِيلَ لَهُ: لِمَ تُحَدِّثُ عن مُرْجِيءٍ؟ فَقَالَ:

= (١٢٧ /)، وفي كتاب: «مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للسامرائي
(ص ٢١٥ - ٢٥٥)، وهو مهم، وفي (التحول المذهبي) من «الإسفار» لراقبه أمثلة من آثار
مخالطتهم .

«أبيئكم اللّحم بالعظام»^(١).

فالمقرئ، رحمه الله تعالى حدّث بلا غررٍ ولا جهالةٍ إذ بيّن فقال:
«وكان مرجئاً».

وما سطرته لك هنا هو من قواعد معتقدك؛ عقيدة أهل السنة
والجماعة، ومنه ما في «العقيدة السلفية» لشيخ الإسلام أبي عثمان
إسماعيل بن عبد الرحمن الصّابوني (م سنة ٤٤٩هـ)؛ قال رحمه الله
تعالى^(٢):

«ويُنْفَضُونَ أَهْلَ الْبِدْعِ الَّذِينَ أَخَذُوا فِي الدِّينِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، وَلَا
يُحِبُّونَهُمْ، وَلَا يَصْحَبُونَهُمْ، وَلَا يَسْمَعُونَ كَلَامَهُمْ، وَلَا يُجَالِسُونَهُمْ، وَلَا
يُجَادِلُونَهُمْ فِي الدِّينِ، وَلَا يُنَاطِرُونَهُمْ، وَيَرَوْنَ صَوْنَ آذَانِهِمْ عَنْ سَمَاعِ
أَبَاطِيلِهِمُ الَّتِي إِذَا مَرَّتْ بِالْأَذَانِ، وَقَرَّتْ فِي الْقُلُوبِ؛ ضَرَّتْ، وَجَرَّتْ إِلَيْهَا
مِنَ الْوَسَاوِسِ وَالْخَطَرَاتِ الْفَاسِدَةِ مَا جَرَّتْ، وَفِيهِ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلَهُ:
﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي
حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾» اهـ.

وعن سليمان بن يسار أن رجلاً يُقال له: صبيغ، قدم المدينة، فجعل
يسأل عن متشابه القرآن؟ فأرسل إليه عمر رضي الله عنه وقد أعد له عراجين
النخل، فقال: مَنْ أنت؟ قال: أنا عبدالله صبيغ، فأخذ هرجوناً من تلك

(١) الخطيب في «جامعه» (١ / ٢٢٤).

(٢) (ص ١٠٠).

العَراجين، فَضَرَبَهُ حَتَّى دَمِيَ رَأْسُهُ، ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى بَرَأَ، ثُمَّ عَادَ، ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى بَرَأَ، فَدَعَى بِهِ لِيَعُودَ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ تَرِيدُ قَتْلِي، فَاقْتُلْنِي قَتْلًا جَمِيلًا، فَأَذِنَ لَهُ إِلَى أَرْضِهِ، وَكَتَبَ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ بِالْيَمَنِ: لَا يُجَالِسُهُ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

رواه الدَّارِمِيُّ.

وقيل: كان مُتَهَمًا بِرَأْيِ الْخَوَارِجِ.

وَالنُّوويُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى قَالَ فِي كِتَابِ «الْأَذْكَارِ»:

«بَابُ: التَّبَرُّيِّ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالْمَعَاصِي».

وَذَكَرَ حَدِيثَ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَرِيَءٌ مِنَ الصَّالِقَةِ، وَالْحَالِقَةِ، وَالشَّاقَةِ». متفق عليه.

وعن ابن عُمرَ بَرَاءَتَهُ مِنَ الْقَدْرِيَّةِ. رواه مسلم^(١).

وَالأَمْرُ فِي هَجْرِ الْمُبْتَدِعِ يَنْبَغِي عَلَى مُرَاعَاةِ الْمَصَالِحِ وَتَكْثِيرِهَا، وَدَفْعِ الْمَفَاسِدِ وَتَقْلِيلِهَا، وَعَلَى هَذَا تَنْزُلُ الْمَشْرُوعِيَّةُ مِنْ عَدَمِهَا؛ كَمَا حَرَّرَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي مَوَاضِعَ^(٢).

وَالْمُبْتَدِعَةُ إِنَّمَا يَكْثُرُونَ وَيُظْهِرُونَ؛ إِذَا قَلَّ الْعِلْمُ، وَفُشِيَ الْجَهْلُ.

وَفِيهِمْ يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(١) وانظر أبحاثاً مهمة في: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» رحمه الله

تعالى (٢ / ١٣٢، ٥ / ١١٩، ١٤ / ٤٥٩ - ٤٦٠، ٣٦ / ١١٨).

(٢) منها في: «مجموع الفتاوى» (٢٨ / ٢١٣، ٢١٦ - ٢١٨).

«فإنَّ هذا الصَّنْفَ يكثرُون ويظهرون إذا كثرت الجاهليَّةُ وأهلُها، ولم يكن هناك من أهل العلم بالنبوءة والمتابعة لها من يُظهر أنوارها الماحية لظلمة الضلالِ، ويكشفُ ما في خلافها من الإفكِ والشُّركِ والمُحالِ» اهـ.

فإذا اشتدَّ ساعدُك في العلم؛ فاقمَّع المبتدعَ وبدعته بلسانِ الحُجَّةِ والبيَّانِ، والسلامُ.



الفصل الرابع أدبُ الزَّمَالَةِ

٢٣ - اخذَ قرينَ السُّوءِ :

كما أَنَّ العِرْقَ دَسَّاسٌ^(١)؛ فَإِنَّ «أَدَبَ السُّوءِ دَسَّاسٌ»^(٢)؛ إِذِ الطَّبِيعَةُ نَقَالَةٌ، وَالعُطْبَاءُ سَرَّاقَةٌ، وَالنَّاسُ كَأَسْرَابِ القَطَا مجبولون على تشبهِ بعضهم ببعض، فاحذَرُ مُعَاشِرَةَ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ العُطْبُ، وَالدَّفْعُ أَسْهَلُ مِنَ الرُّفْعِ.

وعليه؛ فتخيِّرْ للزَّمَالَةِ والصدَاقَةِ من يُعِينُكَ على مَطْلَبِكَ، وَيُقَرِّبُكَ إلى رَبِّكَ، وَيُوَافِقُكَ على شَرِيفِ غَرَضِكَ ومَقْصِدِكَ، وَخُذْ تَقْسِيمَ الصَّدِيقِ فِي أدَقِّ المعَايِرِ^(٣):

١ - صديقٌ منفعَةٌ.

(١) وفي ذلك حديثٌ موضوعٌ، انظر له: «العِلَلُ المتناهية» (٢ / ١٢٣، ١٢٧)،

و«شرح الإحياء»؛ (٥ / ٣٤٨).

(٢) «شرح الإحياء» (١ / ٧٤).

(٣) «محاضرات إسلامية» لمحمد الأخضر حسين (ص ١٢٥ - ١٣٦).

٢ - صديق لذّة.

٣ - صديق فضيلة.

فالأولان منقطعان بانقطاع موجبهما، المنفعة في الأول، واللذّة في

الثاني.

وأما الثالث فالتعويل عليه، وهو الذي باعث صداقته تبادل الاعتقاد
في رسوخ الفضائل لدى كلّ منهما.

وصديق الفضيلة هذا «عمله صعبة» يعزّ الحصول عليها.

ومن نفيس كلام هشام بن عبد الملك «م سنة ١٢٥هـ» قوله^(١):

«ما بقي من لذات الدنيا شيء إلا أخ أرفع مؤونة التحفظ بيبي

وبيته» اهـ.

ومن لطيف ما يُقيد قول بعضهم^(٢):

«العزلة من غير عين العلم: زلة، ومن غير زاي الرهد: علة».



(١) «طبقات النسابين» (ص ٣١).

(٢) «العزلة» للخطابي.

الفصل الخامس آدابُ الطَّالِبِ في حَيَاتِهِ العِلْمِيَّةِ

٢٤ - كِبَرُ الهِمَّةِ في العِلْمِ :

مِنْ سَجَايَا الإِسْلَامِ التَّحَلِّي بِكِبَرِ الهِمَّةِ؛ مَرَكِزِ السَّالِبِ وَالمَوْجِبِ فِي شَخْصِكَ، الرَّقِيبِ عَلَى جَوَارِحِكَ، كِبَرُ الهِمَّةِ يَجْلِبُ لَكَ بِإِذْنِ اللّهِ خَيْرًا غَيْرَ مَجْدُودٍ؛ لَتَرْقَى إِلَى دَرَجَاتِ الكَمَالِ، فَيُجْرِي فِي عُرُوقِكَ دَمَ الشَّهَامَةِ، وَالرِّكْضِ فِي مِيدَانِ العِلْمِ وَالعَمَلِ، فَلَا يَرَاكَ النَّاسُ وَاقِفًا إِلَّا عَلَى أَبْوَابِ الفُضَائِلِ، وَلَا بِاسِطًا بِيَدَيْكَ إِلَّا لِمُهِنَاتِ الأُمُورِ.

والتَّحَلِّي بِهَا يَسْلُبُ مِنْكَ سَفَاسِفَ الأَمَالِ وَالأَعْمَالِ، وَيَجْتَنُّ مِنْكَ شَجَرَةَ الذُّلِّ وَالهَوَانِ وَالتَّمَلُّقِ وَالمُدَاهَنَةِ، فَكَبِيرُ الهِمَّةِ ثَابِتُ الجَأْشِ، لَا تُرْهَبُهُ المَوَاقِفُ، وَفَاقِدُهَا جِبَانٌ رِغْدِيدٌ، تُعَلِّقُ فَمَهُ الفَهَاهَةَ.

وَلَا تُعَلِّقُ فَتَخْلِطُ بَيْنَ كِبَرِ الهِمَّةِ وَالكِبَرِ؛ فَإِنَّ بَيْنَهُمَا مِنَ الفَرْقِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ ذَاتِ الرُّجْعِ وَالأَرْضِ ذَاتِ الصُّدْعِ.

كَبِيرُ الهِمَّةِ حِلْيَةٌ وَرِثَةٌ الأَنْبِيَاءِ، وَالكِبَرُ دَاءُ المَرَضِيِّ بَعْلَةُ الجَبَابِرَةِ

البُؤْسَاءِ.

فيا طالب العلم ! ازرِّمْ لنفسِك كِبَرَ الهِمَّةِ، ولا تَنفَلِتْ مِنْهُ وقد أوما
 الشرعُ إليها في فِقْهِيَّاتِ تُلَابِسِ حَيَاتِكَ؛ لتكونَ دائماً على يَقْظَةٍ مِنْ
 اغْتِنَامِهَا، ومنها: إِبَاحَةُ التَّيْمُمِ للمكْلُفِ عندَ فَقْدِ المَاءِ، وعدمُ الإِزَامَةِ بِقَبُولِ
 هِبَةِ ثَمَنِ المَاءِ لِلوُضُوءِ؛ لما في ذلكِ مِنَ المِنَّةِ الَّتِي تُنَالُ مِنَ الهِمَّةِ مَنْالاً،
 وعلى هَذَا فِقْسٌ^(١)، واللَّهُ أَعْلَمُ.

٢٥ - النُّهْمَةُ فِي الطَّلَبِ :

إذا عَلِمْتَ الكَلِمَةَ المَنْسُوبَةَ إِلَى الخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قيمة كل امرئ ما يحسنه»، وقد قيل: ليس كلمة أحض
 على طَلَبِ العِلْمِ مِنْهَا؛ فَاحْذَرِ غَلَطَ القَائِلِ: مَا تَرَكَ الأَوَّلُ لِلآخِرِ. وَصَوَابِهِ:
 كَمْ تَرَكَ الأَوَّلُ لِلآخِرِ!

فَعَلَيْكَ بِالاسْتِكْثَارِ مِنْ مِيرَاثِ النَّبِيِّ ﷺ، وَابْدُلِ الوُسْعَ فِي الطَّلَبِ
 وَالتَّحْصِيلِ وَالتَّدْقِيقِ، وَمَهْمَا بَلَغْتَ فِي العِلْمِ؛ فَتَذَكَّرْ: «كَمْ تَرَكَ الأَوَّلُ
 لِلآخِرِ»!

وَفِي تَرْجُمَةِ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الجَلِيلِ مِنْ «تَارِيخِ بَغْدَادِ» لِلخَطِيبِ ذَكَرَ مِنْ
 قَصِيدَةٍ لَهُ:

لا يَكُونُ السُّرِيُّ مِثْلَ الدُّنْيِيِّ
 لا وَلا ذُو الذُّكَاةِ مِثْلَ الغَيْبِيِّ

(١) «السعادة العظمى» لمحمد الخضر حسين (ص ٧٦ - ٧٨).

قِيَمَةُ الْمَرْءِ كُلَّمَا أَحْسَنَ الْمَرْءُ
قِضَاءً مِنَ الْإِمَامِ عَلِيٍّ

٢٦ - الرحلة للطلب :

«من لم يكن رُحَلَةً لَنْ يَكُونَ رُحَلَةً»^(١).

فَمَنْ لَمْ يَرْحَلْ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ ؛ لِلْبَحْثِ عَنِ الشُّيُوخِ ، وَالسِّيَاحَةِ فِي الْأَخْذِ عَنْهُمْ ؛ فَيَتَعَدُّ تَأَمُّلَهُ لِيَرْحَلَ إِلَيْهِ ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءَ الَّذِينَ مَضَى وَقْتُ فِي تَعْلُمِهِمْ ، وَتَعْلِيمِهِمْ ، وَالتَّلَقِّيِ عَنْهُمْ ؛ لَدَيْهِمْ مِنَ التَّحْرِيرَاتِ ، وَالضُّبُطِ ، وَالتُّكَاثِ الْعِلْمِيَّةِ ، وَالتَّجَارِبِ ، مَا يَعْزِزُ الْوُقُوفَ عَلَيْهِ أَوْ عَلَى نِظَائِرِهِ فِي بَطُونِ الْأَسْفَارِ .

وَاحْتَرِ الْقَعُودَ عَنْ هَذَا عَلَى مَسَلِكِ الْمُتَصَوِّفَةِ الْبَطَّالِينَ ، الَّذِينَ يُفَضِّلُونَ «عِلْمَ الْخِرْقِ» عَلَى «عِلْمِ الْوَرَقِ» .

وَقَدْ قِيلَ لِبَعْضِهِمْ : أَلَا تَرْحَلُ حَتَّى تَسْمَعَ مِنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ ؟ فَقَالَ : مَا يَصْنَعُ بِالسَّمَاعِ مِنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ مَنْ يَسْمَعُ مِنَ الْخَلْقِ ؟ !
وَقَالَ آخَرُ :

إِذَا خَاطَبُونِي بِعِلْمِ الْوَرَقِ

بَرَزْتُ عَلَيْهِمْ بِعِلْمِ الْخِرْقِ

فَاحْتَرِ هَؤُلَاءِ ؛ فَإِنَّهُمْ لَا لِلْإِسْلَامِ نَصْرًا ، وَلَا لِلْكَفْرِ كَسْرًا ، بَلْ فِيهِمْ

مَنْ كَانَ بِأَسَأَ وَبِلَاءَ عَلَى الْإِسْلَامِ .

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» .

٢٧ - حِفْظُ الْعِلْمِ كِتَابَةً (١):

أبدلِ الجُهْدَ في حفظ العلم (حفظ كتاب)؛ لأن تقييد العلم بالكتابة أمانٌ من الضياع، وقصُرٌ لمسافة البحث عند الاحتياج، لا سيما في مسائل العلم التي تكون في غير مظانها، ومن أجل فوائده أنه عند كِبَر السنِّ وضعف القوى يكون لديك مادةٌ تستجرُّ منها مادةٌ تكتبُ فيها بلا عناءٍ في البحث والتقصي.

ولذا؛ فاجعل لك (كُنَاشَأً) (٢) أو (مُذَكِّرة) لتقييد الفوائد والفرائد والأبحاثِ المنشورة في غير مظانها، وإن استعملتَ غلافَ الكتاب لتقييد ما فيه من ذلك؛ فَحَسَنٌ، ثم تنقل ما يجتمع لك بعد في مذكرة؛ مرتباً له على الموضوعات، مُقَيِّداً رأسَ المسألة، واسمَ الكتاب، ورقمَ الصفحة والمجلد، ثم اكتب على ما قيّدته: «نُقِلَ»؛ حتى لا يختلط بما لم يُنقل؛ كما تكتب: «بَلَغَ صفحة كذا» فيما وصلت إليه من قراءة الكتاب حتى لا يفوتك ما لم تبلِّغه قراءةً.

وللعلماء مؤلفاتٌ عدّة في هذا؛ منها: «بدائع الفوائد» لابن القيم، و«خبايا الزوايا» للزرزكشي، ومنها: كتاب «الإغفال»، و«بقايا الخبايا»، وغيرها.

(١) «الجامع للخطيب» (٢ / ١٦، ١٨٣ - ١٨٥).

(٢) الكُنَاشَأُ - بضم الكاف، وتخفيف النون، وشين معجمة؛ على وزن (غراب) -.

لفظ سرياني؛ بمعنى: المجموعة، والتذكرة. وانظر «التراتب الإدارية» (٢ / ٢٧٠).

وعليه؛ فَقَيْدُ الْعِلْمِ بِالْكِتَابِ^(١)، لَا سِيَّمَا بِدَائِعِ الْفَوَائِدِ فِي غَيْرِ
مِظَانِهَا، وَخَبَايَا الزَّوَايَا فِي غَيْرِ مَسَاقِهَا، وَذُرَرًا مَشْوَرَةً تَرَاهَا وَتَسْمَعُهَا تَخْشَى
فَوَائِدَهَا. . وَهَكَذَا؛ فَإِنَّ الْحِفْظَ يَضْعُفُ، وَالنَّسْيَانَ يَعْرِضُ.

قال الشُّعْبِيُّ:

«إِذَا سَمِعْتَ شَيْئًا؛ فَارْتَبِطْ بِهِ، وَلَوْ فِي الْحَائِطِ».

رواه خَيْثِمَةُ.

وَإِذَا اجْتَمَعَ لَدَيْكَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَجْتَمَعَ؛ فَارْتَبِطْ فِيهِ (تَذَكُّرًا) أَوْ
(كُنَاشًا) عَلَى الْمَوْضُوعَاتِ؛ فَإِنَّهُ يُسَعِّفُكَ فِي أَصْيَقِ الْأَوْقَاتِ الَّتِي قَدْ يَعْجِزُ
عَنِ الْإِدَارِكِ فِيهَا كِبَارُ الْأَبَاتِ.

٢٨ - حِفْظُ الرَّعَايَةِ:

أَبْذُلِ الْوُسْعَ فِي حِفْظِ الْعِلْمِ (حِفْظَ رِعَايَةٍ) بِالْعَمَلِ وَالْإِتِّبَاعِ؛ قَالَ
الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى^(٢):

«يَجِبُ عَلَى طَالِبِ الْحَدِيثِ أَنْ يُخْلِصَ نَيْتَهُ فِي طَلْبِهِ، وَيَكُونَ قَصْدُهُ
وَجْهَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

وَلْيُحْذَرْ أَنْ يَجْعَلَهُ سَبِيلًا إِلَى نَيْلِ الْأَعْرَاضِ، وَطَرِيقًا إِلَى أَخْذِ
الْأَعْوَاضِ؛ فَقَدْ جَاءَ الْوَعِيدُ لِمَنْ أَبْتَغَى ذَلِكَ بَعْلِمِهِ.

(١) وَقَدْ صَحَّ نَحْوُ هَذَا الْأَمْرِ مَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَانظُرْهُ فِي «السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ»

(رقم ٢٠٢٦).

(٢) «الْجَامِعُ لِلْخَطِيبِ» (١ / ٨١، ٨٣، ٨٥، ٨٧، ١٤٢).

وَلِيَتَّقِيَ الْمُفَاخِرَةَ وَالْمُبَاهَاةَ بِهِ، وَأَنْ يَكُونَ قَصْدُهُ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ نَيْلَ
الرِّثَاسَةِ وَاتِّخَاذَ الْأَتْبَاعِ وَعَقْدَ الْمَجَالِسِ؛ فَإِنَّ الْأَقَّةَ الدَّاخِلَةَ عَلَى الْعُلَمَاءِ
أَكْثَرُهَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَلِيُجْعَلَ حِفْظُهُ لِلْحَدِيثِ حِفْظَ رِعَايَةٍ لَا حِفْظَ رَوَايَةٍ؛ فَإِنَّ رُؤَاةَ الْعُلُومِ
كَثِيرٌ، وَرِعَايَتُهَا قَلِيلٌ، وَرُبُّ حَاضِرٍ كَالْغَائِبِ، وَعَالِمٌ كَالْجَاهِلِ، وَحَامِلٌ
لِلْحَدِيثِ لَيْسَ مَعَهُ مِنْهُ شَيْءٌ إِذْ كَانَ فِي اطِّرَاحِهِ لِحُكْمِهِ بِمَنْزِلَةِ الذَّاهِبِ عَنْ
مَعْرِفَتِهِ وَعِلْمِهِ.

وَيَنْبَغِي لِطَالِبِ الْحَدِيثِ أَنْ يَتَمَيَّزَ فِي عَامَّةِ أُمُورِهِ عَنْ طَرَائِقِ الْعَوَامِّ
بِاسْتِعْمَالِ آثَارِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أُمَكَّنَهُ، وَتَوْضِيفِ السُّنَنِ عَلَى نَفْسِهِ؛ فَإِنَّ
اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ اهـ.

٢٩ - تَعَاهُدُ الْمَحْفُوظَاتِ :

تَعَاهُدُ عِلْمَكَ مِنْ وَقْتٍ إِلَى آخَرَ؛ فَإِنَّ عَدَمَ التَّعَاهُدِ عَنَوَانُ الذَّهَابِ
لِلْعِلْمِ مَهْمَا كَانَ.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :

«إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْمُعْقَلَةِ، إِنْ عَاهَدَ
عَلَيْهَا؛ أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا؛ ذَهَبَتْ».

رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَمَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ».

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ بَرٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ (١):

(١) «التمهيد» (١٤ / ١٣٣ - ١٣٤).

«وفي هذا الحديث دليل على أن من لم يتعاهد علمه؛ ذهب عنه أي من كان؛ لأن علمهم كان ذلك الوقت القرآن لا غير، وإذا كان القرآن الميسر للذكر يذهب إن لم يتعاهد؛ فما ظنك بغيره من العلوم الممهودة؟! وخير العلوم ما ضبط أصله، واستذكر فرعه، وقاد إلى الله تعالى، ودل على ما يرضاه اهـ.

وقال بعضهم^(١): «كل عز لم يؤكد بعلم؛ فإلى ذل مصيره اهـ.

٣٠ - التفقه بتخريج الفروع على الأصول:

من وراء الفقه: التفقه، ومُعْتَمِلُهُ هو الذي يُعَلِّقُ الأحكامَ بِمَدَارِكِهَا الشرعية.

وفي حديث ابن مسعود^(٢) رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال: «نَضَّرَ اللهُ أُمَّرَةً سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَفِظَهَا، وَوَعَاها، فَأَدَاها كَمَا سَمِعَهَا، قَرَّبَ حَامِلٍ فَفَقِهَ لَيْسَ بِفَقِيهِ، وَرُبَّ حَامِلٍ فَفَقِهَ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ».

قال ابن خَيْرٍ^(٣) رحمه الله تعالى في فقه هذا الحديث:

«وفيه بيان أن الفقه هو الاستنباط والاستدراك في معاني الكلام من طريق التفهم، وفي ضمنه بيان وجوب التفقه، والبحث على معاني

(١) «شرح الإحياء» (١ / ٩٣).

(٢) رواه أحمد (٤١٥٧)، والترمذي (١٠ / ١٢٤)، وابن ماجه (١ / ٨٥)؛ بسند

صحيح. وهو حديث متواتر.

(٣) في «فهرسته» (ص ٩).

الحديث، واستخراج المكنون من سيره» اهـ.

وللشيخين؛ شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن قيم الجوزية رحمهما الله تعالى، في ذلك القِدْحُ المُعَلَى، وَمَنْ نَظَرَ فِي كُتُبِ هَذَيْنِ الإِمَامِينَ؛ سَلَكَ بِهِ النَّظْرُ فِيهَا إِلَى التَّفَقُّهِ طَرِيقاً مُسْتَقِيماً.

وَمِنْ مَلِيحِ كَلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى قَوْلُهُ فِي مَجْلِسٍ لِلتَّفَقُّهِ (١):

«أما بعد؛ فقد كُنَّا فِي مَجْلِسِ التَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ، وَالنَّظْرِ فِي مَدَارِكِ الأَحْكَامِ المُشْرُوعَةِ؛ تَصْوِيراً، وَتَقْرِيراً، وَتَأْصِيلاً، وَتَفْصِيلاً، فَوَقَعَ الكَلَامُ فِي... فَأَقُولُ: لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ، هَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلِ وَفَصْلِينَ...».

وَاعْلَمَ أَرشُدَكَ اللهُ أَنْ بَيْنَ يَدَيْ التَّفَقُّهِ: (التَّفَكُّرُ) (٢)؛ فَإِنَّ اللهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى دَعَا عِبَادَهُ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ إِلَى التَّحَرُّكِ بِإِجَالَةِ النَّظْرِ العَمِيقِ فِي (التَّفَكُّرِ) فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى أَنْ يُمَعِنَ المَرءُ النَّظْرَ فِي نَفْسِهِ، وَمَا حَوْلَهُ؛ فَتَحاً لِلقُوَى العَقْلِيَّةِ عَلَى مُضْرَاعِهَا، وَحَتَّى يَصِلَ إِلَى تَقْوِيَةِ الإِيمَانِ، وَتَعَمِيقِ الأَحْكَامِ، وَالأَنْتِصَارِ العِلْمِيِّ: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ أَفْلا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

(١) «مجموع الفتاوى» (٢١ / ٥٣٤).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (ص ١٩٦ - ٣٢٤)، و«مدارج السالكين» (١ / ١٤٦).

و«التفسير الإسلامي للتاريخ» لعماد الدين خليل (ص ٢١٠ - ٢١٥).

وعليه؛ فإن «التفقه» أبعد مدى من (التفكر)؛ إذ هو حصيلته
وإنتاجه، وإلا ﴿فَمَا لَهُوَلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

لكن هذا التفقه محجوز بالبرهان، محجوز عن التشهبي والهوي:
﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ
وَلَا نَصِيرٍ﴾.

فيا أيها الطالب! تحل بالنظر والتفكير، والفقهِ والتفقه؛ لعلك أن
تتجاوز من مرحلة الفقيه إلى (فقيه النفس) كما يقول الفقهاء، وهو الذي
يُعلّق الأحكام بمداركها الشرعية، أو (فقيه البدن) كما في اصطلاح
المُحدثين^(١).

فأجل النظر عند الواردات بتخريج الفروع على الأصول، وتمام
العناية بالقواعد والضوابط.

وأجمع للنظر في فرع ما بين تبعه وإفراغه في قالب الشريعة العام
من قواعدها وأصولها المُطرّدة؛ كقواعد المصالح، ودفع الضرر والمشقة،
وجلب التيسير، وسد باب الحيل، وسد الذرائع.

وهكذا هديت لرشدك أبدأ؛ فإن هذا يُسعفك في مواطن المضايق.
وعليك بالتفقه - كما أسلفت - في نصوص الشرع، والتبصر فيما
يخفّ أحوال التشريع، والتأمل في مقاصد الشريعة، فإن خلا فهمك من

(١) وانظر عن قولهم: «فقيه البدن»، معالم الإيمان (٢ / ٣٣٦، ٣٤٠)

و«الثقات» لابن حبان (٩ / ٢٤٢).

هذا، أَوْ نَبَا سَمَعَكَ؛ فَإِنَّ وَقْتَكَ ضَائِعٌ، وَإِنَّ اسْمَ الْجَهْلِ عَلَيْكَ لَوَاقِعٌ.
وهذه الخَلَّةُ بالذاتِ هي التي تُعْطِيكَ التَّمييزَ الدَّقِيقَ، وَالْمِغْيَارَ
الصَّحِيحَ، لِمَدَى التَّحْصِيلِ وَالقُدْرَةِ عَلَى التَّخْرِيجِ :
فَالفَقِيهُ هُوَ مَنْ تَعْرِضُ لَهُ النَّازِلَةُ لَا نَصَّ فِيهَا فَيَقْتَبِسُ لَهَا حُكْمًا.
وَالبَلَاغِيُّ لَيْسَ مَنْ يذْكَرُ لَكَ أَقْسَامَهَا وَتَفْرِيغَاتِهَا، لَكِنَّهُ مَنْ تَسْرِي
بصيرتُهُ البَلَاغِيَّةُ فِي كِتَابِ اللَّهِ، مَثَلًا، فَيَخْرُجُ مِنْ مَكْنُونِ عُلُومِهِ وَجَوْهَرِهَا،
وَإِنْ كَتَبَ أَوْ خَطَبَ؛ نَظَمَ لَكَ عِقْدَهَا.
وهكذا في العلومِ كَافَّةً.

٣١ - اللُّجُوءُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الطَّلَبِ وَالتَّحْصِيلِ :

لَا تَفْرَحْ إِذَا لَمْ يَفْتَحْ لَكَ فِي عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ؛ فَقَدْ تَعَاصَتْ بَعْضُ
الْعُلُومِ عَلَى بَعْضِ الْأَعْلَامِ الْمَشَاهِيرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ صَرَّحَ بِذَلِكَ كَمَا يَعْلَمُ مِنْ
تَرَاجِمِهِمْ، وَمِنْهُمْ : الْأَضْمَعِيُّ فِي عِلْمِ الْقُرُوضِ، وَالرُّهَائِيُّ الْمُحَدِّثُ فِي
الْحَطِّ، وَابْنُ الصَّلَاحِ فِي الْمَنْطِقِ، وَأَبُو مُسْلِمِ النَّحْوِيِّ فِي عِلْمِ التَّصْرِيفِ،
وَالسُّيُوطِيُّ فِي الْحِسَابِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْبَاقِيِّ الْأَنْصَارِيِّ،
وَأَبُو الْحَسَنِ الْقَطِيعِيُّ، وَأَبُو زَكْرِيَّا يَحْيَى بْنُ زِيَادِ الْقَرَاءِ، وَأَبُو حَامِدِ الْغَزَالِيِّ،
خَمْسَتُهُمْ لَمْ يَفْتَحْ لَهُمْ بِالنَّحْوِ.

فِيَا أَيُّهَا الطَّالِبُ! ضَاعِفِ الرَّغْبَةَ، وَافْرَعْ إِلَى اللَّهِ فِي الدُّعَاءِ وَاللُّجُوءِ
إِلَيْهِ وَالانْكَسَارِ بَيْنَ يَدَيْهِ.

وَكَانَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى كَثِيرًا مَا يَقُولُ فِي دُعَائِهِ

إذا استعصى عليه تفسيرُ آيةٍ من كتابِ الله تعالى :

«اللهم يا مُعَلِّمَ آدَمَ وإِبْرَاهِيمَ عَلِّمْنِي ، ويا مُفَهِّمَ سُلَيْمَانَ فَهِّمْنِي» .

فيجدُ الفَتْحَ في ذلك^(١) .

٣٢ - الأمانة العلمية :

يجبُ على طالبِ العلمِ فائقُ التحلِّي بالأمانة العلمية ، في الطُّلبِ ،
والتحمُّلِ ، والعملِ ، والبلاغِ ، والأداء :

«فإن^(٢) فلاحَ الأمةِ في صلاحِ أعمالِها ، وصلاحِ أعمالِها في صحَّةِ
علومِها ، وصحَّةِ علومِها في أن يكونَ رجالُها أمناءَ فيما يَرَوونَ أو يَصِفونَ ،
فمن تَحَدَّثَ في العلمِ بغيرِ أمانةٍ ؛ فقد مَسَّ العلمَ بقرحةٍ ، ووَضَعَ في سبيلِ
فلاحِ الأمةِ حَجَرَ عَثْرَةٍ .

لا تَخْلُو الطوائفُ المتمتيةُ إلى العلومِ من أشخاصٍ لا يَطْلُبونَ العلمَ
ليتحلَّوا بأسنى فضيلةٍ ، أو لِيَتَفَعَّلُوا النَّاسَ بما عَرَفُوا من حكمةٍ ، وأمثالُ هؤلاء
لا تجدُ الأمانةَ في نفوسِهِم مُستَقْرَأً ، فلا يَتَحَرَّجونَ أن يَرَوْا ما لم يسمعوا ،
أو يَصِفُوا ما لم يعلموا ، وهذا ما كان يَدْعُو جهابذةَ أهلِ العلمِ إلى نَقْدِ
الرجالِ ، وتَمييزِ مَنْ يُسْرِفُ في القولِ مَنْ يَصوغُهُ على قَدْرِ ما يعلمُ ، حتى
أصبحَ طُلَّابُ العلمِ على بصيرةٍ من قيمةٍ ما يقرؤونه ، فلا تخفى عليهم
منزلتهُ ، من القَطْعِ بصدقِهِ أو كذِبِهِ ، أو رُجْحانِ أحدهما على الآخرِ ، أو

(١) «فتاوى ابن تيمية» (٤ / ٣٨) .

(٢) «رسائل الإصلاح» (١ / ١٣) .

احتمالهما على سواء» اهـ.

٣٣ - الصُّدْقُ (١):

صَدَقَ اللَّهْجَةَ: عَزَّانُ الْوَقَارِ، وَشَرَفُ النَّفْسِ، وَنَقَاءُ السَّرِيرَةِ، وَسُمُوُّ
الْهَمَّةِ، وَرُجْحَانُ الْعَقْلِ، وَرَسُولُ الْمَوَدَّةِ مَعَ الْخَلْقِ، وَسَعَادَةُ الْجَمَاعَةِ،
وَصِيَانَةُ الدِّيَانَةِ، وَلِهَذَا كَانَ فَرَضَ عَيْنٍ، فَيَا خَيِّبَةً مِنْ فَرَطٍ فِيهِ، وَمَنْ فَعَلَ فَقَدْ
مَسَّ نَفْسَهُ وَعَلَّمَهُ بِأَذَى.

قال الأوزاعي رحمه الله تعالى:

«تَعَلَّمَ الصُّدْقَ قَبْلَ أَنْ تَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ».

وقال وكيع رحمه الله تعالى:

«هَذِهِ الصُّنْعَةُ لَا يَرْتَفِعُ فِيهَا إِلَّا صَادِقٌ» (٢).

فتعلم - رحمك الله - الصُّدْقَ قَبْلَ أَنْ تَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَالصُّدْقُ: إِقَاءُ
الْكَلَامِ عَلَى وَجْهِ مَطَابِقِ لِلْوَقَائِعِ وَالْإِعْتِقَادِ، فَالصُّدْقُ مِنْ طَرِيقِ وَاحِدٍ، أَمَّا
نَقِيضُهُ الْكِذْبُ فَضُرُوبٌ وَالْوَأْنُ وَمَسَالِكُ وَأُودِيَّةٌ، يَجْمَعُهَا ثَلَاثَةٌ (٣):

١ - كَذِبُ الْمُتَمَلِّقِ: وَهُوَ مَا يَخَالَفُ الْوَقَائِعَ وَالْإِعْتِقَادَ، كَمَنْ يَتَمَلَّقُ
لِمَنْ يَعْرِفُهُ فَاسْقًا أَوْ مَبْتَدَعًا فَيَصِفُهُ بِالِاسْتِقَامَةِ.

٢ - وَكَذِبُ الْمُنَافِقِ: وَهُوَ مَا يَخَالَفُ الْإِعْتِقَادَ وَيُطَابِقُ الْوَقَائِعَ كَالْمُنَافِقِ

(١) «فتاوى شيخ الإسلام» (٢٠ / ٧٤ - ٨٥).

(٢) «الجامع» (١ / ٣٠٤، ٢ / ٧) للخطيب البغدادي.

(٣) «رسائل الإصلاح» (١ / ٩٥ - ١٠٥) مهم.

ينطق بما يقوله أهل السنة والهداية .

٣ - وكذب الغيبي : بما يخالف الواقع ويطابق الاعتقاد، كمن يعتقد صلاح صوفي مبتدع فيصفه بالولاية .

فالزَمِ الجادة (الصدق)، فلا تضغط على عكدي اللسان، ولا تضم شفقتك، ولا تفتح فاك ناطقاً إلا على حروف تُعبر عن إحساسك الصادق في الباطن؛ كالحُبِّ والبُغضِ، أو إحساسك في الظاهر؛ كالذي تُدركه الحواس الخمس: السمع، البصر، الشم، الذوق، اللمس .

فالصادق لا يقول: «أحببتك» وهو مُبغض، ولا يقول: «سمعت» وهو لم يسمع، وهكذا . . .

واحذر أن تحوم حولك الظنون، فتخونك العزيمة في صدق اللهجة، فتسجل في قائمة الكذابين .

وطريق الضمانة لهذا - إذا نازعتك نفسك بكلام غير صادق فيه - أن تقهرها بذكر منزلة الصدق وشرفه، وريذة الكذب ودركه، وأن الكاذب عن قريب ينكشف .

واستعن بالله ولا تعجزن .

ولا تفتح لنفسك سابلة المعارض في غير ما حصره الشرع .

فيا طالب العلم! احذر أن تمرق من الصدق إلى المعارض فالكذب، وأسوأ مرامي هذا المروق (الكذب في العلم)؛ لئلا منافسة الأقران، وطيران السمة في الأفق .

ومن تطلّع إلى سُمعةٍ فوق منزلته؛ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ فِي المرصادِ رجالاً
يحملونَ بصائرَ نافذة، وأقلاماً ناقدة، فَيَزِنُونَ السُّمعةَ بالآثر، فتمُّ تعريتك
عن ثلاثة معانٍ:

١ - فَقَدْ الثِّقةَ مِنَ القُلُوبِ .

٢ - ذهابُ عِلْمِكَ وانحسارُ القَبولِ .

٣ - أَنَّ لا تُصَدِّقَ ولو صدقت .

وبالجُملة؛ فمن يحترفُ زُخْرَفَ القَبولِ؛ فهو أخو الساحِرِ، ولا يُفلح
الساحِرُ حيثُ أتى^(١). والله أعلم .

٣٤ - جُنَّةُ طالبِ العلمِ :

جُنَّةُ العالمِ (لا أدري)، وَيَهْتِكُ حجابَهُ الاستكفافُ منها، وقولُه:

يُقالُ . . .

وعليه؛ فإن كان نصفُ العلمِ (لا أدري)؛ فنصفُ الجهلِ (يُقالُ)

و(أظنُّ)^(٢).

٣٥ - المُحافظَةُ على رأسِ مالِكَ (ساعاتِ عُمرِكَ):

الوقتُ الوقتُ للتَّحصيلِ، فكن حِلْفَ عَمَلٍ لا حِلْفَ بطالةٍ وتَطرٍّ،
وَحِلْسَ مَعْمَلٍ لا حِلْسَ تَلَهٍّ وسَمَرٍ، فالحفظُ على الوقتِ؛ بالجِدِّ،

(١) المرجع قبله .

(٢) «العالم» (ص ٣٦) .

والاجتهاد، ومُلازمة الطلب، ومُثاقفة الأشياخ، والاشتغالِ بالعلمِ قراءةً
 وإقراءً ومُطالعةً وتدبراً وحِفظاً ونَحْثاً، لا سِيما في أوقاتِ شَرخِ الشَّبابِ،
 ومُقتَبَلِ العُمُرِ، ومعدنِ العافية، فاعتنم هذه الفُرصةَ الغالية؛ لتنالَ رُتَبَ
 العلمِ العالية؛ فإنها «وَقْتُ جَمعِ القَلبِ، واجتماعِ الفِكرِ»؛ لقلَّةِ الشواغلِ
 والصوارفِ عن التزاماتِ الحياةِ والتَّروُّسِ، ولخفَّةِ الظَّهِيرِ والعيالِ :

ما لِلْمُعِيلِ وَلِلْعَوَالِي إِنَّمَا

يَسْعَى إِلَيْهِنَّ الْفَرِيدُ الْقَارِدُ

وإياك وتأميرَ التسويفِ على نَفْسِكَ؛ فلا تُسَوِّفْ لِنَفْسِكَ بعد الفراغِ
 من كذا، وبعد (التقاعِدِ) من العَمَلِ هذا... وهكذا، بل البِدَارَ قبل أن
 يَصْدُقَ عليك قولُ أبي الطَّحانِ القَيْنِيِّ :

حَنَنْتَنِي حَانِيَاتُ الدُّهْرِ حَتَّى

كَأَنِّي خَاتِلٌ أَذْنَسُو لِصَيْدِ

قَصِيرُ الخَطْوِ يَخِيبُ مَنْ رَأَى

وَلَسْتُ مُقَيِّدًا أَنِّي بِقَيْدِ

وقال أسامة بن مُنقِذٍ :

مَعَ الثَّمَانِينَ عَاثَ الضَّعْفُ فِي جَسَدِي

وَسَاءَنِي ضَعْفُ رِجْلِي وَاضْطِرَابُ يَدِي

إِذَا كَتَبْتُ فَخَطِي خَطٌ مُضْطَرِبٌ

كَخَطِّ مُرْتَعِشِ الكَفِّينِ مُرْتَعِدِ

فَاعْجَبْ لِضَعْفِ يَدِي عَنْ حَمْلِهَا قَلَمًا
 مِنْ بَعْدِ حَمْلِ الْقَنَا فِي لَبَةِ الْأَسَدِ
 فَقُلْ لِمَنْ يَتَمَنَّى طُولَ مُدَّتِهِ
 هَذَا عَوَاقِبُ طُولِ الْعُمْرِ وَالْمُدَدِ
 فَإِنْ أَعْمَلْتَ الْبِدَارَ؛ فَهَذَا شَاهِدٌ مِنْكَ عَلَى أَنَّكَ تَحْمِلُ «كِبَرَ الْهَمَّةِ فِي
 الْعِلْمِ» .

٣٦ - إجمام النفس :

خُذْ مِنْ وَقْتِكَ سُورِيَعَاتٍ تُجِئُ بِهَا نَفْسُكَ فِي رِيَاضِ الْعِلْمِ مِنْ كُتُبِ
 الْمَحَاضِرَاتِ (الثقافة العامة) ؛ فَإِنَّ الْقُلُوبَ يَرُوحُ عَنْهَا سَاعَةٌ فَسَاعَةٌ .

وفي المأثور عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه
 قال : «أَجْمُوا هَذِهِ الْقُلُوبَ، وَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ، فَإِنَّهَا تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ
 الْأَبْدَانُ» (١) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في حكمة النهي عن
 التطوع في مُطَلَقِ الْأَوْقَاتِ (٢) :

«بَلْ فِي النَّهْيِ عَنْهُ بَعْضُ الْأَوْقَاتِ مَصَالِحٌ أُخْرَى مِنْ إِجْمَامِ النَّفُوسِ
 بَعْضُ الْأَوْقَاتِ ؛ مِنْ ثِقَلِ الْعِبَادَةِ ؛ كَمَا يُجَمُّ بِالنَّوْمِ وَغَيْرِهِ، وَلِهَذَا قَالَ مُعَاذُ:
 إِنِّي لِأَحْتَسِبُ نَوْمِي، كَمَا أَحْتَسِبُ قَوْمِي» .

(١) «جامع بيان العلم وفضله» .

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٣ / ١٨٧) .

وقال^(١): «بل قد قيل: إن من جملة حكمة النهي عن التطوع المُطلق في بعض الأوقات: إجمام النفوس في وقت النهي لتَنشَطَ للصلاة؛ فإنها تنبسط إلى ما كانت ممنوعة منه، وتنشط للصلاة بعد الراحة. والله أعلم» اهـ.

ولهذا كانت العطل الأسبوعية للطلاب منتشرة منذ أمد بعيد، وكان الأغلب فيها، يوم الجمعة، وعصر الخميس، وعند بعضهم يوم الثلاثاء، ويوم الاثنين، وفي عيدي الفطر والأضحى من يوم إلى ثلاثة أيام وهكذا...

ونجد ذلك في كتب آداب التعليم، وفي السير، ومنه على سبيل المثال: «آداب المعلمين» لسُحنون (ص ١٠٤)، و«الرسالة المفصلة» للقداسي (ص ١٣٥ - ١٣٧)، و«الشقائق النعمانية» (ص ٢٠)، وعنه في: «أبجد العلوم» (١ / ١٩٥ - ١٩٦)، وكتاب «أليس الصبح بقريب» للطاهر ابن عاشور، و«فتاوى رشيد رضا» (١٢١٢)، و«معجم البلدان» (٣ / ١٠٢). و«فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٢٥ / ٣١٨ - ٣٢٠، ٣٢٩).

٣٧- قراءة التصحيح والضبط:

أحرص على قراءة التصحيح والضبط على شيخٍ مُتقِنٍ؛ لتأمن من التحريف والتصحيف والغلط والوهم.

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٣ / ٢١٧).

وإذا استقرأت تراجم العلماء - وبخاصة الحُفَاطَ منهم - تجذُّ عدداً غيرَ قليلٍ مِمَّنْ جَرَدَ المَطُولَاتِ فِي مَجَالِسَ أَوْ أَيَّامٍ قِرَاءَةَ ضَبْطٍ عَلَى شَيْخٍ مَتَقِنٍ .

فهذا الحافظُ ابنُ حَجَرٍ رحمه الله تعالى قرأ «صحيحَ البخاريِّ» في عشرةِ مجالسٍ، كُلُّ مَجْلِسٍ عَشْرُ سَاعَاتٍ، و«صحيحَ مسلمٍ» في أربعةِ مجالسٍ في نحوِ يومينِ وشيءٍ من بُكْرَةِ النَّهَارِ إِلَى الظَّهْرِ، وَاِنْتَهَى ذَلِكَ فِي يَوْمٍ عَرَفَةَ، وَكَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ سَنَةَ ٨١٣هـ، وَقَرَأَ «سُنَنِ ابْنِ مَاجَةَ» فِي أَرْبَعَةِ مَجَالِسَ، و«معجم الطبراني الصغير» في مجلسٍ واحدٍ، بَيْنَ صَلَاتِي الظَّهْرِ وَالْعَصْرِ .

وشيوخه الفيرزآبادي قرأ في دمشق «صحيح مسلم» على شيخه ابن جهبل قراءةً ضَبْطٍ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ .

وللخطيب البغدادي والمؤتمن الساجي، وابن الأبار وغيرهم في ذلك عجائبٌ وغرائبٌ يطولُ ذِكْرُهَا، وَأَنْظُرْهَا فِي: «السَّيْرُ» لِلذَّهَبِيِّ (١٨ / ٢٧٧ و ٢٧٩، ١٩ / ٣١٠، ٢١ / ٢٥٣)، و«طَبَقَاتُ الشَّافِعِيَّةِ» لِلسُّبْكِيِّ (٤ / ٣٠)، و«الجواهر والدرر» لِلسَّخَاوِيِّ (١ / ١٠٣ - ١٠٥)، و«فَتْحُ الْمُغِيثِ» (٢ / ٤٦)، و«سُدْرَاتُ الدَّهَبِ» (٨ / ١٢١ و ٢٠٦)، و«خُلَاصَةُ الْأَثَرِ» (١ / ٧٢ - ٧٣)، و«فَيْهْرَسُ الْفَهَارِسِ» لِلْكُتَّانِيِّ، و«تَاجُ الْعُرُوسِ» (١ / ٤٥ - ٤٦) .

فَلَا تَنْسَ حَظَّكَ مِنْ هَذَا .

٣٨ - جَرْدُ الْمُطَوَّلَاتِ :

الجَرْدُ لِلْمُطَوَّلَاتِ مِنْ أَمِّ الْمُهِمَّاتِ؛ لِتَعَدُّدِ الْمَعَارِفِ، وَتَوْسِيعِ الْمَدَارِكِ، وَاسْتِخْرَاجِ مَكْنُونِهَا مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْفَرَائِدِ، وَالْخَبِيرَةِ فِي مِطَانِ الْأَبْحَاثِ وَالْمَسَائِلِ، وَمَعْرِفَةِ طَرَائِقِ الْمُصَنِّفِينَ فِي تَأْلِيفِهِمْ وَاصْطِلَاحِهِمْ فِيهَا.

وَقَدْ كَانَ السَّالِفُونَ يَكْتُبُونَ عِنْدَ وَقُوفِهِمْ: «بَلِّغْ»، حَتَّى لَا يَفُوتَهُ شَيْءٌ عِنْدَ الْمَعَاوَدَةِ، لَا سِيَّمَا مَعَ طُولِ الزَّمَنِ.

٣٩ - حُسْنُ السُّؤَالِ :

التَّزِيمُ أَدَبُ الْمُبَاحَثَةِ مِنْ حُسْنِ السُّؤَالِ، فَالِاسْتِمَاعُ، فَصْحَةُ الْفَهْمِ لِلْجَوَابِ، وَإِيَّاكَ إِذَا حَصَلَ الْجَوَابُ أَنْ تَقُولَ: لَكِنَّ الشَّيْخَ فَلَانَ قَالَ لِي كَذَا، أَوْ قَالَ كَذَا؛ فَإِنَّ هَذَا وَهْنٌ فِي الْأَدَبِ، وَضَرْبٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، فَاحْذَرْ هَذَا.

وَإِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعْلَمْ؛ فَكُنْ وَاضِحاً فِي السُّؤَالِ، وَقُلْ: مَا رَأَيْتُكَ فِي الْفَتْوَى بِكَذَا، وَلَا تُسَمِّ أَحَدًا.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى (١):

«وَقِيلَ: إِذَا جَلَسْتَ إِلَى عَالِمٍ؛ فَسَلْ تَفْقَهَا لَا تَعْتَأْهُ أَهـ.»

وَقَالَ أَيْضًا:

(١) «مِفْتَاحُ دَارِ السَّعَادَةِ» (ص ١٨٤).

«وللعلم ستُّ مراتبُ:

أولها: حُسْنُ السُّؤالِ:

الثانية: حُسْنُ الإِنصَاتِ والاسْتِماعِ.

الثالثة: حُسْنُ الفِهمِ.

الرابعة: الحِفظُ.

الخامسة: التعلِيمُ.

السادسة: وهي ثمرته؛ العمل به ومراعاة حدوده» اهـ.

ثم أخذ في بيانها يبحث مهم.

٤٠ - المناظرة بلا مُمارة^(١):

إياك والممارة؛ فإنها نِعمَةٌ، أمَّا المُناظرةُ في الحقِّ؛ فإنها نِعمَةٌ،
إذ المناظرةُ الحقَّةُ فيها إظهارُ الحقِّ على الباطلِ، والراجعُ على
المرجوحِ، فهي مَبِينَةٌ على المُناصِحَةِ، والجِلْمِ، ونَشْرِ العِلْمِ، أمَّا
الممارةُ في المحاوراتِ والمناظراتِ؛ فإنها تَحْجِجُ ورياءً، ولَغَطُ وكِبرياءً،
ومُغالَبَةٌ ومِراءً، واختِيالٌ وشُحناءٌ، ومُجاراةٌ للسُّفهاءِ، فاحذَرها واحذَر
فاعِلها؛ تَسَلِّمَ من المائِمِ وهَتَكَ المحارِمِ، وأَعْرِضَ تَسَلَّمَ وتَكَبَّتِ المائِمِ
والمَغْرَمِ.

٤١ - مُذاكَرَةُ العِلْمِ:

تَمَتَّعَ مع البُصْرَاءِ بالمُذاكَرَةِ والمُطَارَحَةِ؛ فإنها في مواطنَ تَفوقَ

(١) وانظر: «فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٢٤ / ١٧٢ - ١٧٤).

المُطالعة، وتشحذُ الذَّهْنَ، وتُقوي الذَّاكرة؛ مُلتزماً بالإِنصافِ والمُلاطفة،
مُبتعداً عن الحَيْفِ والشُّغْبِ والمجازفة.

وكنْ على حَذَرٍ؛ فإنها تكشفُ عوارَ مَنْ لا يصدُقُ.

فإن كانت مع قاصرٍ في العلم، باردِ الذَّهْنِ؛ فهي داءٌ ومُنافرةٌ، وأما
مذاكرتُك مع نَفْسِكَ في تقليبكِ لمسائلِ العلم؛ فهذا ما لا يسوغُ أن تنفكُ
عنه.

وقد قيل: إحياءُ العلمِ مُذاكرتُهُ.

٤٢ - طالبُ العلمِ يعيشُ بينِ الكِتَابِ والسُّنةِ وعلومِها:

فهما له كالجنَّاحينِ للطائرِ، فاحذَرُ أن تكونَ مَهِيضَ الجناحِ.

٤٣ - استكمالُ أدواتِ كلِّ فن:

لن تكونَ طالبَ علمٍ مُتقِناً مُتقِناً - حتى يَلجَ الجَمَلُ في سَمِّ
الخِيَّاطِ - ما لم تستكملِ أدواتِ ذلكِ الفنِّ، ففي الفقهِ بين الفقهِ وأصوله،
وفي الحديثِ بينِ علمي الروايةِ والدرايةِ... وهكذا، وإلا فلا تتعَنَّ.

قال اللهُ تعالى

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾

فَيَسْتَفَادُ مِنْهَا أَنَّ الطَّالِبَ لَا يَتْرُكُ عِلْماً حَتَّى يُتَقِنَهُ^(١).



(١) شرح الإحياء (١ / ٣٣٤).

الفصل السادس التَّحَلِّيُّ بِالْعَمَلِ

٤٤ - مِنْ عِلَامَاتِ الْعِلْمِ النَّافِعِ :

- ١ - الْعَمَلُ بِهِ .
- ٢ - كِرَاهِيَةُ التَّرَكِيَةِ وَالْمَدْحِ وَالتَّكْبُرِ عَلَى الْخَلْقِ .
- ٣ - تَكَثُّرُ تَوَاضُعِكَ كُلَّمَا أَزْدَدْتَ عِلْمًا .
- ٤ - الْهَرَبُ مِنْ حُبِّ التَّرُؤُسِ وَالشُّهُرَةِ وَالدُّنْيَا .
- ٥ - هَجْرُ دَعْوَى الْعِلْمِ .
- ٦ - إِسَاءَةُ الظَّنِّ بِالنَّفْسِ ، وَإِحْسَانُهُ بِالنَّاسِ ؛ تَنْزَهُاً عَنِ الْوُقُوعِ

بهم .

وقد كان عبد الله بن المبارك إذا ذكر أخلاق من سلف يُنشد :

لَا تَعْرِضَنَّ بِذِكْرِنَا مَعَ ذِكْرِهِمْ
لَيْسَ الصَّحِيحُ إِذَا مَشَى كَالْمَقْعَدِ

٤٥ - زكاة العلم :

أد (زكاة العلم) : صادقاً بالحق، أماراً بالمعروف، نهاءً عن المنكر، مؤزناً بين المصالح والمضار، ناشراً للعلم، وحُبُّ النفع، وتذلل الجاه، والشفاعة الحسنة للمسلمين في نوابج الحق والمعروف.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال :

«إذا مات الإنسان انقطع عمله ؛ إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

رواه مسلم وغيره .

قال بعض أهل العلم^(١) : هذه الثلاث لا تجتمع إلا للعالم الباذل لعلمه، فبذله صدقة، ينتفع بها، والمتلقي لها ابن للعالم في تعلمه عليه .

فاحرص على هذه الحلية ؛ فهي رأس ثمرة علمك .

ولشرف العلم ؛ فإنه يزيد بكثرة الإنفاق، وينقص مع الإسفاق، وآفته الكتمان .

ولا تحملك دعوى فساد الزمان، وغلبة الفساق، وضعف إفادة النصيحة عن واجب الأداء والبلاغ ، فإن فعلت ؛ فهي فعلة يسوق عليها الفساق الذهب الأحمر، ليتم لهم الخروج على الفضيلة، ورفع لواء الرذيلة .

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» .

٤٦ - عِزَّةُ الْعُلَمَاءِ :

التَّحَلِّي بِـ (عِزَّةِ الْعُلَمَاءِ): صِيَانَةُ الْعِلْمِ وَتَعْظِيمُهُ، وَحِمَايَةُ جَنَابِ عِزِّهِ وَشَرَفِهِ، وَيَقْدَرُ مَا تَبَدَّلُهُ فِي هَذَا يَكُونُ الْكَسْبُ مِنْهُ وَمِنَ الْعَمَلِ بِهِ، وَيَقْدَرُ مَا تَهْدِرُهُ يَكُونُ الْفَوْتُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ .

وَعَلَيْهِ؛ فَاحْذَرِ أَنْ يَتَمَنَّدَلَ بِكَ الْكِبْرَاءُ، أَوْ يَمْتَطِيكَ السُّفَهَاءُ، فَتَلَايِنَ فِي فِتْوَى، أَوْ قِضَاءٍ، أَوْ بَحْثٍ، أَوْ خُطَابٍ . . .

وَلَا تَسْعَ بِهِ إِلَى أَهْلِ الدُّنْيَا، وَلَا تَقِفْ بِهِ عَلَى أَعْتَابِهِمْ، وَلَا تَبْدُلْهُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ وَإِنْ عَظُمَ قَدْرُهُ .

وَمَتَّعَ بَصْرَكَ وَبَصِيرَتَكَ بِقِرَاءَةِ التَّرَاجِمِ وَالسِّيَرِ لِأَثْمَةِ مَضْوَا، تَرَفِيهَا بِذَلِّ النَّفْسِ فِي سَبِيلِ هَذِهِ الْحِمَايَةِ، لَا سِيَّمَا مَنْ جَمَعَ مَثَلًا فِي هَذَا؛ مِثْلَ كِتَابِ «مِنْ أَخْلَاقِ الْعُلَمَاءِ» لِمُحَمَّدِ سُلَيْمَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى (١)، وَكِتَابِ «الْإِسْلَامُ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ وَالْحُكَّامِ» لِعَبْدِ الْعَزِيزِ الْبَدْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَكِتَابِ «مَنَاهِجِ الْعُلَمَاءِ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ» لِفَارُوقِ السَّامِرَاثِيِّ (٢) .

وَأَرْجُو أَنْ تَرَى أَضْعَافَ مَا ذَكَرُوهُ فِي كِتَابِ «عِزَّةُ الْعُلَمَاءِ» يَسَّرَ اللَّهُ إِيْتَامَهُ وَطَبَعَهُ .

وَقَدْ كَانَ الْعُلَمَاءُ يُلَقِّنُونَ طُلَّابَهُمْ حِفْظَ قَصِيدَةِ الْجُرْجَانِيِّ عَلِيِّ بْنِ

(١) مطبوع مراراً .

(٢) طبع بجدة عام (١٤٠٧هـ)، نشر دار الوفاء بجدة .

عبدالعزیز (م سنة ۳۹۲ھ) رحمہ اللہ تعالیٰ کما نجدہا عند غدید من
مترجمیة، ومطلعہا:

يَقُولُونَ لِي فِيكَ انْتِبَاضٌ وَإِنَّمَا
رَأَوْا رَجُلًا عَنِ مَوْضِعِ الذَّلِّ أَحَجَمًا
أَرَى النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمْ هَانَ عِنْدَهُمْ
وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أَكْرَمًا
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ
وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النَّفُوسِ لَعَظَّمَا
(لَعَظَّمَا)؛ بفتح الظاء المعجمة المُشَالَةِ.

٤٧ - صِيَانَةُ الْعِلْمِ :

إِنَّ بَلَغْتَ مَنْصِبًا؛ فَتَذَكَّرْ أَنَّ حَبْلَ الْوَصْلِ إِلَيْهِ طَلْبُكَ لِلْعِلْمِ، فَيَفْضَلِ
اللَّهُ ثُمَّ بِسَبَبِ عِلْمِكَ بَلَغْتَ مَا بَلَغْتَ مِنْ وِلَايَةِ فِي التَّعْلِيمِ، أَوْ الْفِتْيَا، أَوْ
الْقَضَاءِ... وهكذا، فَأَعْطِ الْعِلْمَ قَدْرَهُ وَحَظَّهُ مِنَ الْعَمَلِ بِهِ وَإِنزَالَهُ مِنْزَلَتَهُ.
وَاحْذَرِ مَسَلَكَ مَنْ لَا يَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا، الَّذِينَ يَجْعَلُونَ الْأَسَاسَ (حِفْظُ
الْمَنْصِبِ)، فَيَطُوونَ أَلْسِنَتَهُمْ عَنِ قَوْلِ الْحَقِّ، وَيَحْمِلُهُمْ حُبُّ الْوِلَايَةِ عَلَى
الْمَجَارَاةِ.

فَالزَّمْ - رَحِمَكَ اللَّهُ - الْمُحَافَظَةَ عَلَى قِيَمَتِكَ بِحِفْظِ دِينِكَ، وَعِلْمِكَ،
وَشَرَفِ نَفْسِكَ، بِحِكْمَةٍ وَدِرَايَةٍ وَحُسْنِ سِيَاسَةٍ: «أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ»
«أَحْفَظِ اللَّهَ فِي الرَّخَاءِ يَحْفَظْكَ فِي الشَّدَّةِ...».

وإن أُصْبَحَتْ عاطلاً من قِلادةِ الولاية - وهذا سبيلك ولو بَعْدَ حينٍ -
فلا بأسَ ؛ فإنه عَزَلُ محمديةٍ لا عَزَلُ مذمّيةٍ ومنقصةٍ .

ومن العجيبِ أن بعضَ من حُرِمَ قَصْداً كبيراً من التوفيقِ لا يكونُ عنده
الالتزامُ والإِنابةُ والرجوعُ إلى الله إلا بعد (التقاعدِ) ، فهذا وإن كانت توبته
شَرعيةً ؛ لكنَّ دينه ودينَ العجائزِ سواءً ، إذ لا يتعدى نفعه ، أما وقتَ ولايته ،
حالِ الحاجةِ إلى تعدي نفعه ؛ فتجدُه من أعظم الناس فُجوراً وضرراً ، أو
باردَ القلبِ أحرَسَ اللسانِ عن الحقِّ .

فنعوذُ باللهِ من الخُذلانِ .

٤٨ - المُداراةُ لا المُداهنةُ :

المُداهنةُ خُلُقٌ مُنْحَطٌ ، أما المُداراةُ ؛ فلا ، لكن لا تَخْلُطُ بينهما ،
فتحملك المُداهنةُ إلى حَضارِ النفاقِ مجاهرةً ، والمُداهنةُ هي التي تَمَسُّ
دينك^(١) .

٤٩ - الغرامُ بالكُتُبِ^(٢) :

شَرَفُ العلمِ معلومٌ ؛ لِعُمومِ نفعه ، وشِدَّةُ الحاجةِ إليه كحاجةِ البدنِ
إلى الأنفاسِ ، وظهورُ النقصِ بِقَدَرِ نقصه ، وحصولُ اللذَّةِ والسُرورِ بقدرِ
تحصيله ؛ ولهذا اشتدَّ غَرامُ الطُّلابِ بِالطُّلُبِ ، والغرامُ بجمعِ الكُتُبِ مع

(١) انظر: «الغريباء» للأجري (ص ٧٩ - ٨٠) مهم ، و«روضة العقلاء» (ص ٧٠)

لابن جِبَانِ .

(٢) انظر: «روضة المحبين» (ص ٦٨ - ٦٩) مهم ، و«مفتاح دار السعادة»

(ص ٨١) ؛ ففيهما أخبارٌ ظريفةٌ وحكاياتٌ طريفةٌ .

الانتقاء، ولهم أخبار في هذا تطول، وفيه مُقَيَّدَاتٌ في «خبر الكتاب» يسر الله إتمامه وطبعه.

وعليه؛ فأخْرِزِ الأصولَ من الكُتُبِ، واعْلَمْ أَنَّهُ لَا يُغْنِي مِنْهَا كِتَابٌ عَنِ كِتَابٍ، وَلَا تَحْشُرْ مَكْتَبَتِكَ وَتَشْوِشْ عَلَيَّ فِكْرَكَ بِالْكَتُبِ الْعَثَاثِيَةِ، لَا سِيَّمَا كُتُبَ الْمَبْتَدَعَةِ؛ فَإِنَّهَا سُمْ نَاعِقٍ.

٥٠ - قِوَامُ مَكْتَبَتِكَ :

عليك بِالْكَتُبِ الْمَنْسُوجَةِ عَلَى طَرِيقَةِ الْاِسْتِدْلَالِ، وَالتَّفَقُّهِ فِي عِلَلِ الْاِحْكَامِ، وَالْعَوَاصِرِ عَلَى اَسْرَارِ الْمَسَائِلِ؛ وَمِنْ اَجْلِهَا كُتِبَ الشَّيْخِينَ: شَيْخِ الْاِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، وَتَلْمِيذِهِ ابْنِ قَيْمٍ الْجَوْزِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

وعلى الجادة في ذلك من قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ كُتِبَ:

١ - الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ (م سنة ٤٦٣هـ) رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، وَأَجَلُّ كِتَبِهِ «التَّمْهِيدُ».

٢ - الْحَافِظُ ابْنُ قُدَامَةَ (م سنة ٦٢٠هـ) رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، وَأَرَأْسُ كِتَبِهِ «الْمُغْنِي».

٣ - الْحَافِظُ ابْنُ الذَّهَبِيِّ (م سنة ٧٤٨هـ) رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

٤ - الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ (م سنة ٧٧٤هـ) رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

٥ - الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ (م سنة ٧٩٥هـ) رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

٦ - الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرَ (م سنة ٨٥٢هـ) رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

- ٧ - الحافظ الشوكاني (م سنة ١٢٥٠هـ) رحمه الله تعالى .
- ٨ - الإمام محمد بن عبد الوهَّاب (م سنة ١٢٠٦هـ) رحمه الله تعالى .
- ٩ - كُتِبَ عُلَمَاءِ الدَّعْوَةِ، وَمِنْ أَجْمَعِهَا «الدَّرَرُ السَّيِّئَةُ» .
- ١٠ - العَلَامَةُ الصَّنْعَانِي (م سنة ١١٨٢هـ) رحمه الله تعالى ، لا سِيَّما كِتَابَهُ النَّافِعَ «سُبُلُ السَّلَامِ» .
- ١١ - العَلَامَةُ صِدِّيقِ حَسَنِ خَانَ الْقَنُوجِيِّ (م سنة ١٣٠٧هـ) رحمه الله تعالى .

- ١٢ - العَلَامَةُ مُحَمَّدِ الْأَمِينِ الشَّنْقِيطِيِّ (م سنة ١٣٩٣هـ) رحمه الله تعالى لا سِيَّما كِتَابَهُ : «أَضْوَاءُ الْبَيَّانِ» .

٥١ - التَّعَامُلُ مَعَ الْكِتَابِ :

- لا تَسْتَفِدُّ مِنْ كِتَابٍ حَتَّى تَعْرِفَ اصْطِلَاحَ مُؤَلِّفِهِ فِيهِ ، وَكَثِيرًا مَا تَكُونُ الْمُقَدِّمَةُ كَاشِفَةً عَنِ ذَلِكَ ، فَايْدَأْ مِنْ الْكِتَابِ بِقِرَاءَةِ مُقَدِّمَتِهِ .
- ٥٢ - وَمِنْهُ :

إِذَا حُرِّزَ كِتَابًا ؛ فَلَا تُدْخِلْهُ فِي مَكْتَبَتِكَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَمُرَّ عَلَيْهِ جَرْدًا ، أَوْ قِرَاءَةَ لِمُقَدِّمَتَيْهِ ، وَفَهْرَسِهِ ، وَمَوَاضِعَ مِنْهُ ، أَمَا إِنْ جَعَلْتَهُ مَعَ فَتْنَةٍ فِي الْمَكْتَبَةِ ؛ فَرُبَّمَا مَرَّ زَمَانٌ وَفَاتَ الْعُمُرُ دُونَ النَّظَرِ فِيهِ ، وَهَذَا مُجَرَّبٌ ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ .

٥٣ - إِعْجَامُ الْكِتَابَةِ :

إِذَا كَتَبْتَ فَأَعْجِمِ الْكِتَابَةَ بِإِزَالَةِ عُجْمَتِهَا ، وَذَلِكَ بِأَمْرِ :

- ١ - وُضُوحُ الخَطِّ .
- ٢ - رَسْمُهُ عَلَى ضَوْءِ قَوَاعِدِ الرِّسْمِ (الإملاء) .
وفي هذا مؤلفاتٌ كثيرةٌ من أهمها:
«كتابُ الإملاء» لحُسينِ والي^(١) .
«قواعدُ الإملاء» لعبدِ السَّلامِ محمدِ هارون^(٢) .
«المُفْرَدُ العَلَمُ» للهاشِمِي ، رحمهم اللهُ تعالى^(٣) .
- ٣ - النُّقْطُ لِلْمُعْجَمِ والإِهْمَالُ لِلْمُهْمَلِ^(٤) .
- ٤ - الشُّكْلُ لِمَا يُشْكِلُ .
- ٥ - تَثْبِيْتُ عِلاماتِ التَّرْقِيمِ فِي غَيْرِ آيَةٍ أَوْ حَدِيثٍ^(٥) .



-
- (١) طبع ثم صور عام (١٤٠٥هـ)، بيروت / دار القلم .
 - (٢) طبع الخانجي بمصر عام (١٣٩٩هـ)، الطبعة الرابعة .
 - (٣) الطبعة الثانية والعشرون، المكتبة البخارية الكبرى بمصر .
 - (٤) لأنَّ التُّرْكَ يُؤدِّي إِلَى الاِشْتِباهِ .
 - (٥) «التَّرْقِيمُ وَعِلاماتُهُ»، أحمد زكي باشا، طبع عام ١٣٣٠هـ .

الفصل السابع المحاذير

٥٤ - حِلْمُ الْيَقْظَةِ :

إِيَّاكَ وَ(حِلْمُ الْيَقْظَةِ) ، وَمِنْهُ بَأَنَّ تَدْعِي الْعِلْمَ لِمَا لَمْ تَعْلَمْ ، أَوْ إِتْقَانَ مَا لَمْ تَتَّقِنَ ، فَإِنَّ فَعَلْتَ ؛ فَهُوَ حِجَابٌ كَثِيفٌ عَنِ الْعِلْمِ .

٥٥ - اخْذَرْ أَنْ تَكُونَ «أَبَا شَبِيرٍ»^(١) :

فَقَدْ قِيلَ : الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ أَشْبَارٍ ، مَنْ دَخَلَ فِي الشُّبْرِ الْأَوَّلِ ؛ تَكَبَّرَ ، وَمَنْ دَخَلَ فِي الشُّبْرِ الثَّانِي ؛ تَوَاضَعَ ، وَمَنْ دَخَلَ فِي الشُّبْرِ الثَّلَاثِ ؛ عَلِمَ أَنَّهُ مَا يَعْلَمُ .

٥٦ - التَّصَدَّرَ قَبْلَ التَّاهُلِ :

اخْذَرْ التَّصَدَّرَ قَبْلَ التَّاهُلِ ؛ فَهُوَ آفَةٌ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ .
وَقَدْ قِيلَ : مَنْ تَصَدَّرَ قَبْلَ أَوَانِهِ ؛ فَقَدْ تَصَدَّى لِهَوَانِهِ .

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص ٦٥) .

٥٧ - التَّمَرُّ بِالْعِلْمِ :

أَحْذَرُ مَا يَتَسَلَّى بِهِ الْمُفَلِّسُونَ مِنَ الْعِلْمِ ، يَرَاغِعُ مَسْأَلَةً أَوْ مَسْأَلَتَيْنِ ،
فَإِذَا كَانَ فِي مَجْلِسٍ فِيهِ مَنْ يُشَارُ إِلَيْهِ ؛ أَثَارَ الْبَحْثِ فِيهِمَا ؛ لِيُظْهِرَ عِلْمَهُ !
وَكَمْ فِي هَذَا مِنْ سَوَاءٍ ، أَقْلُهُمَا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ النَّاسَ يَعْلَمُونَ حَقِيقَتَهُ .

وَقَدْ بَيَّنْتُ هَذِهِ مَعَ أَخَوَاتِ لَهَا فِي كِتَابِ «التَّعَالُمِ» ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ .

٥٨ - تَحْيِيرُ الْكَاعْدِ :

كَمَا يَكُونُ الْحَذَرُ مِنَ التَّالِيفِ الْخَالِيِّ مِنَ الْإِبْدَاعِ فِي مَقَاصِدِ التَّالِيفِ
الْثَمَانِيَةِ^(١) ، وَالَّذِي نَهَيْتُهُ «تَحْيِيرُ الْكَاعْدِ»^(٢) ، فَالْحَذَرُ مِنَ الْاِسْتِغْثَالِ
بِالتَّصْنِيفِ قَبْلَ اسْتِكْمَالِ أَدْوَاتِهِ ، وَاكْتِمَالِ أَهْلِيَّتِكَ ، وَالنُّضُوجِ عَلَى يَدِ
أَشْيَاخِكَ ؛ فَإِنَّكَ تُسَجِّلُ بِهِ عَارًا ، وَتُبْدِي بِهِ سُنَّارًا .

أَمَّا الْاِسْتِغْثَالُ بِالتَّالِيفِ النَّافِعِ لِمَنْ قَامَتْ أَهْلِيَّتُهُ ، وَاسْتِكْمَالِ أَدْوَاتِهِ ،
وَتَعَدُّتِ مَعَارِفُهُ ، وَتَمَرُّسُ بِهِ بَحْثًا ، وَمُرَاجَعَةً ، وَمُطَالَعَةً ، وَجَرْدًا لِمَطْوَلَاتِهِ ،
وَحِفْظًا لِمَخْتَصِرَاتِهِ ، وَاسْتِذْكَارًا لِمَسَائِلِهِ ؛ فَهُوَ مِنْ أَفْضَلِ مَا يَقُومُ بِهِ النُّبَلَاءُ
مِنَ الْفَضَلَاءِ .

وَلَا تَنْسَ قَوْلَ الْخَطِيبِ :

(١) أَوَّلُ مَنْ ذَكَرَهَا ابْنُ حَزْمٍ فِي : «نَقَطِ الْعُرُوسِ» ، وَانظُرْ تَسْلُسُلَ الْعُلَمَاءِ لَذِكْرِهَا

فِي : «إِضَاءَةُ الرَّامُوسِ» (٢ / ٢٨٨) مَهْم .

(٢) هُوَ الْقِرْطَاسُ : فَارِسِيٌّ مَعْرَبٌ .

«مَنْ صَنَّفَ؛ فَقَدْ جَعَلَ عَقْلَهُ عَلَى طَبَقٍ يَغْرِضُهُ عَلَى النَّاسِ» .

٥٩ - مَوْقِفُكَ مِنْ وَهْمٍ مَن سَبَقَكَ :

إذا ظفِرتَ بِوَهْمٍ لِعَالَمٍ؛ فلا تَفْرَحْ بِهِ لِلْحَطِّ مِنْهُ، وَلَكِنْ افْرَحْ بِهِ لِتَصْحِيحِ الْمَسْأَلَةِ فَقَطْ؛ فَإِنَّ الْمُنْصِيفَ يَكَادُ يَجْزِمُ بِأَنَّهُ مَا مِنْ إِمَامٍ إِلَّا وَلَهُ أَغْلَاطٌ وَأَوْهَامٌ، لَا سِيَّمَا الْمُكْثَرِينَ مِنْهُمْ .

وَمَا يُشْغِبُ بِهَذَا وَيَفْرَحُ بِهِ لِلتَّنْقِصِ؛ إِلَّا مَتَعَالِمٌ وَيُرِيدُ أَنْ يُطَبَّ زُكَاةً فَيُحَدِّثُ بِهِ جُدَامًا^(١).

نَعَمْ؛ يُنْبِئُهُ عَلَى خَطَا أَوْ وَهْمٍ وَقَعَ لِإِمَامٍ غَيْرِ فِي بَحْرِ عِلْمِهِ وَفَضِيلِهِ، لَكِنْ لَا يُثِيرُ الرُّهْجَ عَلَيْهِ بِالتَّنْقِصِ مِنْهُ وَالْحَطِّ عَلَيْهِ فَيَغْتَرَّ بِهِ مَنْ هُوَ مِثْلُهُ .

٦٠ - دَفْعُ الشُّبُهَاتِ^(٢) :

لَا تَجْعَلْ قَلْبَكَ كَالسَّفِينَةِ تَتَلَقَّى مَا يَرِدُ عَلَيْهَا، فَاجْتَنِبْ إِثَارَةَ الشُّبُهَةِ وَإِرَادَهَا عَلَى نَفْسِكَ أَوْ غَيْرِكَ، فَالشُّبُهَةُ خَطَافَةٌ، وَالقُلُوبُ ضَعِيفَةٌ، وَأَكْثَرُ مَنْ يُلْقِيهَا حَمَالَةُ الحَطَبِ - المبتدعة - فتوقُّهُم .

٦١ - اخْذِرِ اللُّحْنَ :

ابْتَعِدْ عَنِ اللُّحَنِ فِي اللَّفْظِ وَالكِتَابِ، فَإِنَّ عَدَمَ اللُّحَنِ جَلَالَةٌ، وَصَفَاءٌ ذَوِيقٍ، وَوَقُوفٌ عَلَى مِلاَحِ المعاني لِسَلَامَةِ المَبَانِي :

(١) «مجمع البلاغة» للراغب .

(٢) «مفتاح دار السعادة» (ص ١٥٣) .

فمن عَمَرَ رضي الله عنه أنه قال :

«تَعَلَّمُوا الْعَرَبِيَّةَ ؛ فَإِنَّهَا تَزِيدُ فِي الْمَرْوَةِ»^(١).

وقد وَرَدَ عن جماعةٍ من السُّلَفِ أنهم كانوا يَضْرِبُونَ أولادَهُم على اللُّحَنِ^(٢).

وَأَسْنَدَ الْخَطِيبُ^(٣) عن الرَّحْبِيِّ قال :

«سَمِعْتُ بَعْضَ أَصْحَابِنَا يَقُولُ : إِذَا كَتَبَ لِحَانًا ، فَكَتَبَ عن اللُّحَانِ لِحَانًا آخَرَ ؛ صَارَ الْحَدِيثُ بِالْفَارْسِيَّةِ»^(٤) !
وَأَنشَدَ الْمُبَرِّدُ^(٥) :

النُّحُو يُسْطُ من لِسَانِ الْأَلْكَنِ
وَالْمَرْءُ تُكْرِمُهُ إِذَا نَمَّ يَلْحَنِ
فَإِذَا أَرَدْتَ مِنَ الْعُلُومِ أَجْلَهَا
فَأَجْلُهَا مِنْهَا مُقِيمُ الْأَلْسِنِ^(٥)

وعليه ؛ فلا تَحْفَلْ بقولِ القاسمِ بْنِ مُخَيَّمِرَةَ رحمه الله تعالى :

«تَعَلَّمُ النُّحُو : أَوَّلُهُ شِغْلٌ ، وَآخِرُهُ بَغْيٌ» .

(١) «الجامع» (٢ / ٢٥) للخطيب .

(٢) «الجامع» (٢ / ٢٨ ، ٢٩) .

(٣) «الجامع» (٢ / ٢٨) .

(٤) «الجامع» (٢ / ٢٨) .

(٥) لبعض العلماء تعقيبٌ على ما أنشده المُبَرِّدُ من أن أجَلَ العلومِ علمُ التوحيدِ ،

لكن الجلالة هنا نسيبة إلى علوم الآلة . والله أعلم .

ولا بقولِ بِشْرِ الحافي رحمه الله تعالى :

«لَمَّا قِيلَ لَهُ: تَعَلَّمِ النَحْوَ قَالَ: أَضِلُّ، قَالَ: قُلْ ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْرًا.
قَالَ بِشْرٌ: يَا أَخِي! لِمَ ضَرَبْتَهُ؟ قَالَ: يَا أَبَا نَصْرٍ! مَا ضَرَبَهُ وَإِنَّمَا هَذَا أَصْلٌ
وُضِعَ. فَقَالَ بِشْرٌ: هَذَا أَوْلُهُ كَذِبٌ، لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ.»

رواهما الخطيب في «اقتضاء العلم العمل».

٦٢ - الإجهاض الفكري :

احذِرِ (الإجهاض الفكري) ؛ بإخراجِ الفكرةِ قبل نُضوجِها.

٦٣ - الإسرائيليات الجديدة^(١) :

احذِرِ الإسرائيلياتِ الجديدةَ في نَفَثاتِ المستشرقين ؛ من يهودٍ
ونصارى ؛ فهي أشدُّ نكايَةً وأعظمُ خَطراً من الإسرائيلياتِ القديمةِ ؛ فإنَّ هذه
قد وَضَحَ أمرُها ببيانِ النبي ﷺ الموقفَ منها، ونَشَرِ العُلَماءِ القَوْلَ فيها، أما
الجديدةُ المُتَسَرِّبةُ إلى الفِكرِ الإسلاميِّ في أعقابِ الثورةِ الحضاريةِ
وأتصالِ العالمِ بعضه ببعضٍ، وكَبْحِ المدِّ الإسلاميِّ ؛ فهي شرٌّ محضٌ،
وبلاءٌ مُتَدَفِّقٌ، وقد أخذت بعضُ المُسلمين عنها سِنَّةً، وخَفَضَ الجَنَاحَ لها
آخرون، فاحذِرِ أَنْ تَقَعَ فيها. وقى اللهُ المُسلمين شرَّها.

٦٤ - احذِرِ الجَدَلَ البيزنطيَّ^(٢) :

أي الجَدَلَ العقيم، أو الضَّئيل، فقد كان البيزنطيون يتحاورون في

(١) «مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها» لعلَّالِ الفاسي (صفحة ب).

(٢) «معجم التراكيب» (ص ٢٨٠).

جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ وَالْعَدُوِّ عَلَى أَبْوَابِ بِلَدِيهِمْ حَتَّى دَاهَمَهُمْ .

وهكذا الجدُّ الضَّئِيلُ يَصُدُّ عَنِ السَّبِيلِ .

وَهَذِي السُّلْفِ : الْكُفُّ عَنْ كَثْرَةِ الْخِصَامِ وَالْجِدَالِ ، وَأَنَّ التَّوَسُّعَ فِيهِ مِنْ قِلَّةِ النُّورِ ؛ كَمَا قَالَ الْحَسَنُ إِذْ سَمِعَ قَوْمًا يَتَجَادَلُونَ :

«هُؤُلَاءِ مَلُّوا الْعِبَادَةَ، وَخَفَّتْ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ، وَقَلَّ وَرَعُهُمْ، فَتَكَلَّمُوا» .

رواه أحمد في «الزهد»، وأبو نعيم في «الحلية»^(١) .

٦٥ - لَا طَائِفِيَّةَ وَلَا حِزْبِيَّةَ يُعْقَدُ الْوَلَاءُ وَالْبِرَاءُ عَلَيْهَا^(٢) :

أهل الإسلام ليس لهم سمة سوى الإسلام والسلام :

فيا طالب العلم ! بارك الله فيك وفي علمك ؛ اطلب العلم ، واطلب

العَمَلِ ، واذعُ إلى الله تعالى على طريقة السُّلْفِ .

وَلَا تَكُنْ خَرَّاجًا وَلَا جَائِدًا فِي الْجَمَاعَاتِ ، فَتَخْرُجَ مِنَ السَّعَةِ إِلَى

الْقَوَالِبِ الضَّيِّقَةِ ، فَإِسْلَامُ كُلِّهِ لَكَ جَادَّةٌ وَمَنْهَجًا ، وَالْمُسْلِمُونَ جَمِيعُهُمْ هُمْ

الْجَمَاعَةُ ، وَإِنَّ يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ ، فَلَا طَائِفِيَّةَ وَلَا حِزْبِيَّةَ فِي الْإِسْلَامِ .

وَأَعِذُكَ بِاللَّهِ أَنْ تَتَّصِدَّعَ ، فَتَكُونَ نَهَابًا بَيْنَ الْفِرَقِ وَالطَّوَائِفِ

وَالْمَذَاهِبِ الْبَاطِلَةِ وَالْأَحْزَابِ الْغَالِيَةِ ، تَعْقُدُ سُلْطَانَ الْوَلَاءِ وَالْبِرَاءِ عَلَيْهَا .

(١) وذكره الحافظ ابن رجب في «فضل علم السُّلْفِ عَلَى الْخَلْفِ» .

(٢) انظر : «فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٣ / ٣٤١-٣٤٤ ، ٤١٥-٤١٦ ، ٤١٩

فهو مهم و٤ / ٤٦-١٥٤ مهم أيضاً و١١ / ٥١٢ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٣ / ٣٤٢ ، ٤١٦-٤٢١

فهرسها و٣٦ / ١٧٩ - ١٨٠ و٣٧ / ٢٨) .

فَكُنْ طَالِبَ عِلْمٍ عَلَى الْجَادَةِ؛ تَقْفُوا الْأَثَرَ، وَتَتَّبِعُوا السُّنْنَ، تَدْعُوا إِلَى
اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، عَارِفًا لِأَهْلِ الْفَضْلِ فَضْلَهُمْ وَسَابِقَتَهُمْ.

وَأَنَّ الْحِزْبِيَّةَ^(١) ذَاتَ الْمَسَارَاتِ وَالْقَوَالِبِ الْمُسْتَحْدِثَةِ الَّتِي لَمْ يَعْهَدْهَا
السَّلَفُ مِنْ أَعْظَمِ الْعَوَاقِقِ عَنِ الْعِلْمِ، وَالتَّفْرِيقِ عَنِ الْجَمَاعَةِ، فَكَمْ أَوْهَنْتْ
حَبْلَ الْإِتِّحَادِ الْإِسْلَامِيِّ، وَغَشِيَّتِ الْمُسْلِمِينَ بِسَبَبِهَا الْغَوَاشِي.

فَاخْذَرِ رَحِمَكَ اللَّهُ أَحْزَاباً وَطَوَائِفَ طَائِفُهَا، وَنَجْمَ بِالْشَّرِّ
نَاجِمُهَا، فَمَا هِيَ إِلَّا كَالْمِيَازِبِ؛ تَجْمَعُ الْمَاءَ كَدْرًا، وَتُفَرِّقُهُ هَدْرًا؛ إِلَّا مَنْ
رَحِمَهُ رَبُّكَ، فَصَارَ عَلَى مِثْلِ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمْ.

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ عَلَامَةِ أَهْلِ الْعِبُودِيَّةِ^(٢):

«الْعَلَامَةُ الثَّانِيَّةُ: قَوْلُهُ: «وَلَمْ يُنْسَبُوا إِلَى اسْمٍ»؛ أَي: لَمْ يَشْتَهَرُوا
بِاسْمٍ يُعْرَفُونَ بِهِ عِنْدَ النَّاسِ مِنَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي صَارَتْ أَعْلَامًا لِأَهْلِ الطَّرِيقِ.
وَأَيْضًا؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَتَّقِدُوا بِعَمَلٍ وَاحِدٍ يَجْرِي عَلَيْهِمْ اسْمُهُ، فَيُعْرَفُونَ
بِهِ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ؛ فَإِنَّ هَذَا آفَةٌ فِي الْعِبُودِيَّةِ، وَهِيَ عِبُودِيَّةٌ مُقَيَّدَةٌ.

وَأَمَّا الْعِبُودِيَّةُ الْمُطْلَقَةُ؛ فَلَا يُعْرَفُ صَاحِبُهَا بِاسْمٍ مُعَيَّنٍ مِنْ مَعَانِي
أَسْمَائِهَا؛ فَإِنَّهُ مُجِيبٌ لِدَاعِيهَا عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا، فَلَهُ مَعَ كُلِّ أَهْلِ عِبُودِيَّةٍ
نَصِيبٌ يَضْرِبُ مَعَهُمْ بِسَهْمٍ؛ فَلَا يَتَّقِدُ بِرِسْمٍ وَلَا إِشَارَةٍ، وَلَا اسْمٍ وَلَا

(١) وَفِي «حُكْمِ الْإِتِّمَاءِ» لِرَاقِمِهِ فَوَائِدُ زَوَائِدِ.

(٢) «مَدَارِجُ السَّالِكِينَ» (٣ / ١٧٢).

بِزِيٍّ، وَلَا طَرِيقٍ وَضَعِيٍّ اصْطِلَاحِيٍّ، بَلْ إِنْ سُئِلَ عَنْ شَيْخِهِ؟ قَالَ:
 الرَّسُولُ. وَعَنْ طَرِيقِهِ؟ قَالَ: الْاِتِّبَاعُ. وَعَنْ خِرْقَتِهِ؟ قَالَ: لِبَاسُ التَّقْوَى.
 وَعَنْ مَذْهَبِهِ؟ قَالَ: تَحْكِيمُ السُّنَّةِ. وَعَنْ مَقْصِدِهِ وَمَطْلَبِهِ؟ قَالَ: ﴿يُرِيدُونَ
 وَجْهَهُ﴾. وَعَنْ رِبَاطِهِ وَعَنْ خَانَكَاهُ؟ قَالَ: ﴿فِي بَيُوتِ أَيْدِنَ اللّٰهُ أَنْ تَرْفَعَ
 وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ. يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ
 وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللّٰهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾. وَعَنْ نَسَبِهِ؟ قَالَ:

أَبِي الْإِسْلَامِ لَا أَبَ لِي سِوَاهُ

إِذَا افْتَخَرُوا بِقَيْسٍ أَوْ تَمِيمٍ

وَعَنْ مَأْكَلِهِ وَمَشْرَبِهِ؟ قَالَ: «مَالِكٌ وَلِهَا؟ مَعَهَا حِذَاؤُهَا وَسِقَاؤُهَا، تَرِدُ الْمَاءَ،
 وَتَرَعَى الشَّجَرَ، حَتَّى تَلْقَى رَهْمًا».

وَاحْسَرْتَاهُ تَقْضَى الْعُمْرُ وَأَنْصَرَمَتْ

سَاعَاتُهُ بَيْنَ ذُلِّ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ

وَالْقَوْمُ قَدْ أَخَذُوا دَرْبَ النِّجَاةِ وَقَدْ

سَارُوا إِلَى الْمَطْلَبِ الْأَعْلَى عَلَى مَهَلٍ

ثُمَّ قَالَ: «قَوْلُهُ: «أَوْلَئِكَ ذَخَائِرُ اللّٰهِ حَيْثُ كَانُوا»؛ ذَخَائِرُ الْمَلِكِ: مَا
 يُخْبَأُ عِنْدَهُ، وَيَذْخَرُهُ لِمَهْمَاتِهِ، وَلَا يَبْذُلُهُ لِكُلِّ أَحَدٍ؛ وَكَذَلِكَ ذَخِيرَةُ الرَّجُلِ:
 مَا يَذْخَرُهُ لِحَوَائِجِهِ وَمَهْمَاتِهِ. وَهَؤُلَاءِ؛ لَمَّا كَانُوا مُسْتَوْرِينَ عَنِ النَّاسِ
 بِأَسْبَابِهِمْ، غَيْرَ مُشَارٍ إِلَيْهِمْ، وَلَا مُتَمَيِّزِينَ بِرَسْمٍ دُونَ النَّاسِ، وَلَا مُتَسَبِّبِينَ
 إِلَى اسْمِ طَرِيقٍ أَوْ مَذْهَبٍ أَوْ شَيْخٍ أَوْ زِيٍّ؛ كَانُوا بِمَنْزِلَةِ الذَّخَائِرِ الْمَخْبُوءَةِ».

وهؤلاء أبعدُ الخَلْقِ عن الآفاتِ؛ فإنَّ الآفاتِ كُلَّها تحتَ الرسومِ
والتقيُّدِ بها، ولزومِ الطُّرُقِ الاصطلاحيةِ، والأوضاعِ المُتداوِلةِ الحادثةِ.

هذه هي التي قَطعتْ أكثرَ الخَلْقِ عن الله، وهم لا يَشْعُرُونَ.

وَالعَجَبُ أنَّ أهلها هم المعروفون بالطلبِ والإرادةِ، والسَّيرِ إلى الله،

وهم - إلا الواحدَ بعد الواحدِ - المَقْطوعون عن الله بتلك الرسومِ والقيودِ.

وقد سُئل بعضُ الأئمةِ عن السُّنَّةِ؟ فقال: ما لا اسمَ له سوى

«السُّنَّة».

يعني: أن أهلَ السُّنَّةِ ليس لهم اسمٌ يُنسَبون إليه سواها.

فَمِنَ الناسِ من يتقيَّد بلباسٍ غيره، أو بالجلوسِ في مكانٍ لا يجلسُ
في غيره، أو مِشيَّةٍ لا يمشي غيرها، أو بزيٍّ وهيئَةٍ لا يخرجُ عنهما، أو عبادةٍ
معينةٍ لا يتعبَّدُ بغيرِها وإن كانت أعلى منها، أو شيخٍ معينٍ لا يلتفتُ إلى
غيره وإن كان أقربَ إلى الله ورسوله منه.

فهؤلاء كُلُّهم مَحجوبون عن الظَّفَرِ بالمطلوبِ الأعلى، مَصْدودون
عنه، قد قيَّدتهم العوائدُ، والرسومُ، والأوضاعُ، والاصطلاحاتُ عن تجريدِ
المتابعةِ، فأضْحَوْا عنها بمعزلٍ، ومنزلتُهم منها أبعدُ منزلٍ، فترى أحدهم
يتعبَّد بالرياضةِ، والخَلْوَةِ، وتفريغِ القلبِ، ويَعُدُّ العِلْمَ قاطعاً له عن
الطريقِ، فإذا ذُكر له الموالاةُ في الله، والمعاداةُ فيه، والأمرُ بالمعروفِ،
والنهيُّ عن المنكرِ؛ عَدَّ ذلكُ فُضولاً وشرّاً، وإذا رَأَوْا بينهم من يقومُ بذلكِ؛
أخرجوه من بينهم، وعدَّوه غَيراً عليهم، فهؤلاء أبعدُ الناسِ عن الله، وإن

كانوا أكثر إشارة. والله أعلم» اهـ.

٦٦ - نواقض هذه الحلية :

يا أخي ! - وَقَانَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ الْعَثَرَاتِ - إِنْ كُنْتَ قَرَأْتَ مَثَلًا مِنْ «حَلِيَّةِ طَالِبِ الْعِلْمِ» وَأَدَابِهِ، وَعَلِمْتَ بَعْضًا مِنْ نَوَاقِضِهَا؛ فَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ خَوَارِمِهَا الْمَفْسَدَةَ لِنِظَامِ عَقْدِهَا:

١ - إفشاء السرِّ.

٢ - ونقل الكلام من قوم إلى آخرين.

٣ - والصِّلْفُ واللِّسَانَةُ.

٤ - وكثرة المزاح.

٥ - والدُّخُولُ فِي حَدِيثِ بَيْنِ اثْنَيْنِ.

٦ - والحِقْدُ.

٧ - والحَسَدُ.

٨ - وسوء الظنِّ.

٩ - ومُجَالَسَةُ الْمَبْتَدِعَةِ.

١٠ - ونقل الخُطْبَى إِلَى الْمَحَارِمِ.

فاحذَرِ هَذِهِ الْأَثَامَ وَأَخْوَاتِهَا، وَأَقْصُرْ خُطَاكَ عَنْ جَمِيعِ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَحَارِمِ، فَإِنْ فَعَلْتَ، وَإِلَّا فَاعْلَمْ أَنَّكَ رَقِيقُ الدِّيَانَةِ، خَفِيفٌ، لَعَابٌ، مُغْتَابٌ، نَمَامٌ، فَأَنْتَى لَكَ أَنْ تَكُونَ طَالِبَ عِلْمٍ، يُشَارُ إِلَيْكَ بِالْبَنَانِ، مُنْعَمًا بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

سَدَّ اللهُ الخُطَى، وَمَنَعَ الجَمِيعَ التَّقْوَى وَحُسْنَ العَاقِبَةِ فِي الأخرَةِ
والأولى.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

بَكْر بن عبد الله أبو زيد

٢٥ / ١٠ / ١٤٠٨ هـ

□□□□□

الفهرس

.....	المقدمة	٥
الفصل الأول: آداب الطالب في نفسه		
٩	١ - العلم عبادة
١٢	٢ - كُنْ سلفياً
١٣	٣ - ملازمة خشية الله تعالى
١٤	٤ - دوام المراقبة
١٤	٥ - خفض الجناح ونبذ الخيلاء والكبرياء
١٦	٦ - القناعة والزهادة
١٧	٧ - التحلي بروق العلم
١٩	٨ - تحل بالمروءة
١٩	٩ - التمتع بخصال الرجولة
٢٠	١٠ - هجر الترفه
٢٢	١١ - الإعراض عن مجالس اللغو
٢٢	١٢ - الإعراض عن الهيشات
٢٣	١٣ - التحلي بالرفق
٢٣	١٤ - التأمل

١٥ - الثبات والتبُّت ٢٣

الفصل الثاني: كَيْفِيَّةُ الطَّلْبِ والتَّلْقِي

١٦ - كَيْفِيَّةُ الطَّلْبِ ومراتبه ٢٥

١٧ - تَلْقَى العِلْمَ عن الأَشْيَاخ ٣٠

الفصل الثالث: أدب الطالب مع شيخه

١٨ - رِعَايَةُ حُرْمَةِ الشَّيْخ ٣٥

١٩ - رَأْسُ مَالِكِ أَيُّهَا الطَّالِبُ من شَيْخِكَ ٣٧

٢٠ - نَشَاطُ الشَّيْخِ فِي دَرْسِهِ ٣٧

٢١ - الكِتَابَةُ عن الشَّيْخِ حَالِ الدَّرْسِ والمِذَاكِرَةِ ٣٨

٢٢ - التَّلْقَى عن المَبْتَدِع ٣٩

الفصل الرابع: أدب الزَّمَالَةِ

٢٣ - احذَرِ قَرِينِ السُّوءِ ٤٧

الفصل الخامس: أدب الطالب في حَيَاتِهِ العِلْمِيَّةِ

٢٤ - كِبَرُ الهِمَّةِ فِي العِلْمِ ٤٩

٢٥ - النُّهْمَةُ فِي الطَّلْبِ ٥٠

٢٦ - الرِّحْلَةُ لِلطَّلْبِ ٥١

٢٧ - حِفْظُ العِلْمِ كِتَابَةً ٥٢

٢٨ - حِفْظُ الرِعَايَةِ ٥٣

٢٩ - تَعَاهُدُ المَحْفُوظَاتِ ٥٤

٣٠ - التَّفَقُّهُ بِتَخْرِيجِ الفُرُوعِ عَلَى الأَصُولِ ٥٥

٣١ - اللُّجُوءُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الطَّلْبِ وَالتَّحْصِيلِ ٥٨

٥٩	٣٢ - الأمانة العلمية
٦٠	٣٣ - الصدق
٦٢	٣٤ - جُنَّة طالب العلم
٦٢	٣٥ - المحافظة على رأس مالك (ساعات العمر)
٦٤	٣٦ - إجمام النفس
٦٥	٣٧ - قراءة التصحيح والضبط
٦٧	٣٨ - جَرْد المطوَّلَات
٦٧	٣٩ - حُسْن السؤال
٦٨	٤٠ - المُناظرة بلا مِماراة
٦٨	٤١ - مُذاكرة العلم
٦٩	٤٢ - طالب العلم يعيش بين الكتاب والسنة وعلومهما
٦٩	٤٣ - استكمال أدوات كل فن

الفصل السادس : التحلّي بالعمل

٧١	٤٤ - من علامات العلم النافع
٧٢	٤٥ - زكاة العلم
٧٣	٤٦ - عزّة العلماء
٧٤	٤٧ - صيانة العلم
٧٥	٤٨ - المُداراة لا المداهنة
٧٥	٤٩ - الغرام بالكتب
٧٦	٥٠ - قِوام مكتبتك
٧٧	٥١ - التعامل مع الكتاب
٧٧	٥٢ - المرور على الكتاب قبل وضعه في المكتبة
٧٧	٥٣ - إعجام الكتابة

الفصل السابع : المحاذير

- ٧٩ ٥٤ - حلم اليقظة
- ٧٩ ٥٥ - احذر أن تكون أبا شير
- ٧٩ ٥٦ - التصدّر قبل التأهل
- ٨٠ ٥٧ - التئمّر بالعلم
- ٨٠ ٥٨ - تحبير الكاغد
- ٨١ ٥٩ - موقفك من وهم من سبقك
- ٨١ ٦٠ - اذفع الشُّبهات
- ٨١ ٦١ - احذر اللُّحن
- ٨٣ ٦٢ - الإجهاض الفكري
- ٨٣ ٦٣ - الإسرائيليّات الجديدة
- ٨٣ ٦٤ - احذر الجدّل البيزنطي
- ٨٤ ٦٥ - لا طائفية ولا حزبية يُعقد الولاء والبراء عليها
- ٨٨ ٦٦ - نواقض هذه الحلية

